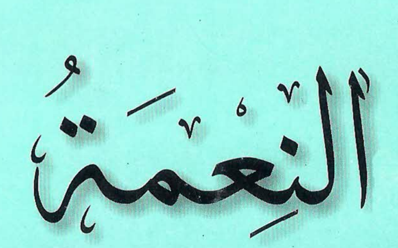


دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت



النِعمَةُ

في العقيدة والحياة النسكية

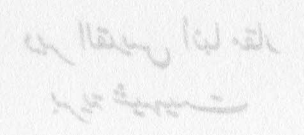
الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

النعمة

في العقيدة والحياة النسكية

الأب متى المسكين



كتاب: **النعمة في العقيدة والحياة النسكية**

المؤلِّف: **الأب متى المسكين**

الطبعة الأولى: ١٩٨٧

الطبعة الثانية: ٢٠٠٢.

الطبعة الثالثة: ٢٠٠٩.

هذا الكتاب عبارة عن مقال مسلسل سبق نشره أولاً في مجلة مرقس شهور "أكتوبر ونوفمبر وديسمبر" ١٩٧٦، وهو ملخص سلسلة عظات أُلقيت وسُجِّلت على ٣ شرائط كاسيت بأرقام ٤/٧٦، ٥/٧٦، ٦/٧٦

مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون

ص. ب ٢٧٨٠ القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٧/٥١٠٣

رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-448-078-3

المحتويات

أولاً: في العقيدة

معنى الكلمة

"النعمة" باليونانية خاريس Χάρις وبالعبرية حِـنْ Hen وجـذرها اللغوي Henn، أو حسيد Hesedh، وتفيد معنى حنـان أو إحـسان. ووردت هذه الكلمة في العهد القديم مرات كثيرة (١٥٦) بمعانٍ متشابهة، وأهما ما ورد بمعنى التعطُّف والرأفة مع الرحمة السخية.

عمق معنى النعمة:

وقد وردت كصفة أساسية لله تعالى: فالله **"إله نعمة"**، ولكن في ترجمتها السبعينية وردت **"رحمة ورأفة"**: «ونادى الرب: الرب إله **رحـيم ورؤوف** (إله نعمة) **بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء**» (خر ٣٤: ٦). وكل هذه الصفات تدور حول شرح المعنى الذي تحويه صفة النعمة.

ولكي يدرك القارئ عمق واتساع المعنى الذي تحويه صفة النعمة عند الله، ما قاله داود بالروح: «لأن نعمتك (رحمتك) أفضل من الحياة» (مز ٦٣: ٣)، وهنا تظهر **نعمة الله** متفوقة على أعظم العطايا التي يمكن أن ينالها الإنسان من يد الله، فنعمة الله أعظم من الحياة وكل بركات الأرض!

اتصال النعمة بالمُنعِم:

وبالتدقيق في أصول معنى النعمة في الأدب العبري اللاهـوتي، كمـا يبحث قاموس "كيتل،"[1] نجد معناها لا يفيد مجرَّد صفة عابرة أو عمل خارج عن كيان الشخصية المنعِمَة، بل يفيد حالة أو فعلاً نابعاً من حالة

1 Kittel, G. *Theological Dictionary of the New Testament,* Eerdmans, Grand Rapids, vol. 9.

داخلية للشخص المُنعِم المانح للعطف والرأفة بصورة متصلة من نحو الشخص الآخر المنعَم عليه. فيقول المزمور مثلاً: «طريق الكذب أبعد عني وبناموسك أنعِمْ عليَّ ("ارحمني" في الترجمة اليونانية)» (مز ١١٩: ٢٩). فهنا الناموس يفيد حالة اتصال بين الله والناس (وبالتحديد أتقياء الله) كنعمة فائضة من الله باستمرار على طالبي وجه الله وبرِّه.

نعمة ونعمة:

ولكن نعمة الله ازدادت جداً وتفوقت في العهد الجديد على العهد القديم بصورة فريدة وفائقة في شخص يسوع المسيح، لذلك يقارن يوحنا الرسول بين النعمة بيسوع المسيح والنعمة في العهد القديم بقوله: «ومن **ملئه** نحن جميعاً أخذنا، **ونعمة فوق نعمة**» (يو ١: ١٦). أي أنه إن كان الناموس "الروحي" في العهد القديم هو "نعمة"، فالنعمة بيسوع المسيح هي نعمة فوق كل نعمة العهد القديم!

ويعود يوحنا الرسول يقارن بصورة رقيقة خفية بين نعمة الناموس التي كانت شبهاً وظلاً للحق وبين نعمة الله بيسوع المسيح التي هي الحق كل الحق بقوله: «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما **النعمة والحق** فبيسوع المسيح صارا» (يو ١: ١٧).

[لأن الناموس هو النعمة القديمة (المؤقتة) التي أُعطيت من الكلمة بواسطة موسى ... غير أن النعمة الأزلية والحق من خلال يسوع المسيح قد صارا. فبينما قال إن الناموس فقط بموسى أُعطي، فإن النعمة (التي بيسوع المسيح) كونها الحق الكائن من الآب، فهي العمل الأزلي من الكلمة][2] **العلاَّمة كلمندس الإسكندري**.

(2) Paed. 1. 7.

[وبقوله نعمة فوق نعمة، فواضح أن اليهود (المختارين) خلصوا بالنعمة][٣] **القديس يوحنا الذهبي الفم.**

[فبينما الناموس كان يعطي النعمة للناس قديماً داعياً إيَّاهم إلى المعرفة الكاملة لله، فالنعمة والحق بواسطة الابن يُدْخلان الصلاح فينا ليس بالشبه والمثال بل بالوصايا الإلهية][٤] **القديس كِيرلس الكبير.**

[وإن كانوا (الآباء والأنبياء قديماً) قد اختيروا من قِبَل الله ليس بسبب كمال أعمالهم، فواضح أنه بالنعمة نالوا هذه الكرامة. وهكذا نحن كلنا (الآن) خلُصنا بالنعمة، ولكن ليس مثلهم، لأنه ليس بالقدر الذي كان لهم، بل أكثر جداً. فالنعمة التي صارت لنا ليست مثل تلك، فنحن لم نُعْطَ فقط مغفرة الخطايا، بل أُعطينا أيضاً البر والتقديس ونعمة الروح الفائضة جداً، وصرنا من خلال هذه النعمة أعزاء الله][٥] **القديس يوحنا الذهبي الفم.**

[النعمة بلغت الآباء (في زمانهم) أيضاً، لكنها أتت بوفرة. هم حينذاك اشتركوا في الروح القدس؛ أما الآن فقد تعمَّدوا فيه (اصطبغوا) كلية][٦] **القديس كيرلس الأورشليمي.**

ويبتدئ القديس نيلوس (سنة ٤٣٠) يربط بين النعمة والتبني (التي سوف نتكلم عنها باستفاضة) فيقول:

[قديماً أُعطيت لنا النعمة ونحن أعداء منبوذون بمقتضى الناموس؛ أما الآن فقد أُعطيت النعمة ونحن لسنا أعداء بعد، بل أبناء

(3) Hom. 14:2, in Jo.

(4) Jo. 1:9.

(5) Hom. 14:2, in Jo.

(6) Catech. 17:18.

بمقتضى الإنجيل، أكثر مجداً من الأول، هذه النعمة التي من خلالها نقترب من الله كأبناء][٧] **القديس نيلوس (من أنقرة).**

(7) Ep. 2:314.

غاية النعمة

لذلك نود لو ينتبه القارئ إلى هذا التدرج البديع في نعمة الله وسخائه بين العهد القديم والعهد الجديد. فكل عطايا الله ووعوده قديماً في خلاص الشعب من العبودية وعبوره البحر وسيناء ودخوله إلى ميراثه المريح في أرض كنعان ”أرض الخيرات الوفيرة“ أرض تفيض لبناً وعسلاً، ثم انتصارات الشعب بيد الله في كل حروبه وضيقاته، هذه كلها كانت ”**هبات نعمة**“، وكانت غايتها النهائية دخول الشعب في عهد أمانة ومعرفة الله.

فغاية نعمة الله سواء في العهد القديم أو العهد الجديد هي أن يرتبط الإنسان بالله المنعم والرحيم ليشترك أو ليكون شريكاً في نعمة الله! **غاية النعمة أن يصبح الإنسان شريكاً فيها!**

التجسدُّ أعظم صورة للنعمة:

لذلك ظهرت نعمة الله بأعظم وأعمق وأكمل صورة لها في تجسد ابن الله، وهنا يركز آباء الكنيسة بصورة مكثفة على أن نعمة الله العظمى ظهرت وأُعطيت لنا في شخص يسوع المسيح.

يقول العلاَّمة أوريجانوس:

[هذه النعمة انتقلت إلينا بعد أن أرسل (الله) لنا ابنه يسوع، فالقوة التي أظهرها بين اليهود أرسلها (في شخص يسوع) لِمَنْ تحدَّدوا إليه

من بين الأمم](٨) **العلاَّمة أوريجانوس.**

وفي هذا يؤكِّد القديس أثناسيوس:

[هي نعمة واحدة التي أعطيت (لنا) من الآب في الابن](٩) **القديس أثناسيوس.**

ولكن الآب والابن لهما نعمة واحدة:

[الذي منه وبه قد صارت النعمة](١٠) **القديس أثناسيوس.**

غير أنه بالابن اكتملت عطية نعمة الله:

[فالكلمة واهب النعمة](١١) **القديس أثناسيوس.**

«ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦):

[لأن النعمة التي أدركتنا كانت مذخرة في المسيح](١٢) **القديس أثناسيوس.**

والثالوث يشترك في عطية النعمة للإنسان:

[توجد نعمة واحدة مكتملة من الآب بواسطة الابن في الروح القدس](١٣) **القديس أثناسيوس.**

[فبالشركة في اللوغُس (الكلمة) بواسطة الروح، يأخذون هذه النعمة من الآب](١٤) **القديس أثناسيوس.**

---

(8) Cels. 5:50.
(9) C. Ar. 2:42.
(10) C. Ar. 1:59.
(11) C. Ar. 1:4.
(12) C. Ar. 2:76.
(13) Ep. Serap. 1:14.
(14) C. Ar. 1:9.

ولكن التجسُّد هو الذي أظهر النعمة بصورة واضحة وملموسة:

[في ميلاد المسيح أُعطيت النعمة للناس][١٥] **قوانين الرسل.**

[وبمجيء المخلِّص الذي يعني "نعمة تدبير التجسُّد" ...][١٦]

القديس كيرلس الكبير.



(15) Ap. Const. 8:33.

(16) Is. 1. 2.

عطايا النعمة الرئيسية

وبدراسة كتابات الآباء نجد أن النعمة الإلهية ترتكز بصورة واضحة في العطايا الآتية:

أولاً: نعمة التجسُّد، وعمل الفداء بموت المسيح وقيامته الذي أكمله الله لخلاص الإنسان.

ثانياً: النعمة الموهوبة للإنسان في المعمودية (وبقية الأسرار) لاقتبال غاية التجسُّد، أي الشركة في موت المسيح وقيامته.

ثالثاً: نعمة التبني وعطية الروح القدس.

وسوف نجتاز في هذه العطايا بدون تحديد لأنها متداخلة معاً.

أولاً: غاية التجسُّد هي غاية النعمة

إن الغاية النهائية من التجسد هي بعينها التي رأيناها غاية نهائية "**للنعمة**": أي أن يصبح الإنسان شريكاً في نعمة الله، الأمر الذي تم لنا بصورة فائقة ونهائية بموت المسيح وقيامته، حيث في موته رُفعت عنا جميع الحواجز والعوائق التي تفصلنا عن الله، وهي الخطية بكل فروعها وأصولها، وفي قيامته برَّرنا وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات. وهكذا اكتملت للبشرية في موت المسيح وقيامته شركة قائمة ودائمة في نعمة الله في السماء كنصيب وميراث محفوظ لنا لا يتدنس ولا يضمحل، وفي الأرض فرح وسرور وسلام في أعنف المواقف وأشد الاضطهادات عربوناً شاهداً بصدق مواعيد الله العليا. هكذا صارت نعمة العهد الجديد ميراثاً أبدياً مع المسيح: مجداً في السماء، وسلاماً على الأرض!!

وهكذا ظهرت محبة الله الأزلية بكل وضوح عملي واختباري نحو البشرية الخاطئة "**كفعل نعمة فائق الوصف**" في موت المسيح وقيامته!! فأصبحت خلاصة الحياة الروحية في مفهوم العهد الجديد هي أن يقتني الإنسان "هذه النعمة"، أي يدخل في صميم فعل النعمة الفائق الوصف، أي في موت المسيح وقيامته.

ثانياً: الأسرار الكنسية هي المدخل الوحيد لقبول غاية النعمة

وهذا الاقتناء لا يتم إلا داخل الكنيسة، ويبدأ بسر المعمودية المعروف أنه "**سر الإيمان الأول**"، حيث يحصل الإنسان على شركة شخصية في موت الرب وقيامته تؤول إلى فعل استنارة، أي إلى دخول في نور الخلاص، لرؤية جديدة في الله لإدراك علاقتنا السرية معه كبنين!

[وإذ نعتمد نستنير، وإذ نستنير نصير بنيناً، وإذ نصير بنيناً نكمُل، وإذ نكمُل نصير غير مائتين بعد. هذا العمل - أي المعمودية - يُدعى نعمة واستنارة، وكمالاً واغتسالاً! اغتسال لأننا بالمعمودية نغتسل من خطايانا، ونعمة لأن العقوبة المفروضة على التعدِّي تُرفع في المعمودية، واستنارة لأننا بالمعمودية نرى نور الخلاص أي نرى الله جيداً](١٧) **العلاَّمة كليمندس الإسكندري**.

وفي عُرْفِ الآباء إن كانت المعمودية تُعتبر نعمة عتق من الخطايا وفك رُبُط الشيطان، فالتناول **هو نعمة دخول في الجسد**:

[الذين اعتمدوا وذاقوا النعمة الإلهية ... يأتي الشيطان مزمجراً عليهم ... ولكن ما دمنا فككنا قيودنا (بالمعمودية) فلنتقدَّم إلى النعمة الإلهية ونتناول من الجسد المقدس](١٨) **القديس كيرلس الكبير**.

---

(17) Paed. 1, 6, 26.
(18) Jo. 3:6.

وهكذا يلاحظ القارئ أن نعمة الإفخارستيا مكمِّلة لنعمة المعمودية، ومن الاثنين يبلغ الإنسان إلى غاية النعمة وهي الشركة الدائمة في نعمة الله بالاتحاد بشخص يسوع المسيح، بالاصطباغ بموته، ونوال روح قيامته، والدخول في امتياز عضوية جسده!

ولكن لا يتم هذا كله إلا من خلال الأسرار الكنسية التي هي المدخل الوحيد لقبول نعمة الله، باعتبار أن المسيح هو نفسه هبة الله العظمى للبشرية الحامل **لنعمة الآب** الكلية. ثم إن المسيح بدوره أوصل هذه النعمة بنفسه للإنسان كنعمة أيضاً من طرفه، **نعمة الابن**، وذلك بموته الإرادي وقيامته التي هي هي نعمة الفداء، مستودعاً هذا السر الخلاصي للكنيسة في **نعمة سر المعمودية وسر الإفخارستيا** وما يتبعهما من أعمال وأسرار.

المعمودية سر الإيمان الأول، والمدخل الأول للنعمة:

وفي هذا يمدُّنا العلاَّمة أوريجانوس بمنهج لمفهوم المعمودية كمدخل أساسي للنعمة:

فنعمة المعمودية عند أوريجانوس هي أساس الحياة الروحية كلها، منذ بدايتها حتى آخر درجاتها؛ أما بقية الحياة الروحية بكل أعمالها وجهادها وأسرارها في جميع مراحلها بعد المعمودية فهي ليست سوى الاحتفاظ والاستزادة من نعمة المعمودية الأولى!

فجميع التعاليم الأخلاقية وفنون الجهاد عند أوريجانوس تنبع أساساً من نظرة روحية متأصلة في أن الله هو صاحب المبادرة الأولى في سَكْبه نعمته على الإنسان في المعمودية:

◎ فالإنسان المسيحي يشترك في حياة الكلمة (المسيح) بالروح القدس.

هذه الشركة تقوم على ثلاث ركائز: الإيمان الشديد، والمعرفة

المستنيرة، والحب الملتهب.

أما غاية هذه الشركة الممتدة في المسيح، فهي العودة إلى الآب!

[المعمودية هي مبدأ وينبوع جميع النعَم الإلهية، فغسل الماء للتطهير، الذي يشير إلى تطهير النفس التي تَغتسل (بالسر) من كل دنس وكل غش، هو نابع من قوَّة الدعاء باسم الثالوث المعبود، القوَّة التي تنسكب على مَنْ يتقدم لله][١٩].

وتتلخص نعمة المعمودية في:

[(أ) الانعتاق من عبودية الشيطان.

(ب) المغفرة الكاملة لجميع الخطايا دفعة واحدة.

(ج) امتلاء المعتمد من الروح القدس ونزول نار إلهية (غير منظورة) تأكل منه كل ما هو مادي وأرضي][٢٠].

◎ الإنسان المعتمد يصير إنساناً جديداً:

[لقد نزلتَ إلى الماء وصرتَ صحيحاً (صورة الله الأُولى)، وقد تطهَّرتَ من كل دنس الخطية، ثم صعدتَ ثانية (قيامة) إنساناً جديداً مهيَّئاً لتسبِّح تسبحة جديدة][٢١].

◎ ما هي الحياة الجديدة وهذه الولادة الجديدة؟

[نعمة المعمودية هي موت وقيامة مع المسيح][٢٢].

[وبالمعمودية نصير أبناء الله وإخوة للمسيح][٢٣].

---

(19) Origen., Jo. 6:33.
(20) Jo. 6: 33.
(21) Exodus. 5:5.
(22) Exodus. 5:2, Ezek. 2:5.
(23) Jo., 20:37.

[بالمعمودية نصير أيضاً أعضاء للمسيح وهياكل لله](٢٤).

[المعمودية هي شركة في الطبيعة الإلهية بالحب بواسطة الروح القدس المنسكب في القلوب](٢٥).

◎ وأوريجانوس واضح في تأكيده على أن المعمودية وما تؤول إليه من ولادة جديدة للبشرية هي من عمل الثالوث:

[بدون الآب والابن والروح القدس، لا يمكن أن تتم الولادة الجديدة التي بها يتحقق الخلاص](٢٦).

ويؤكد أوريجانوس أن **المؤمنين ينالون الروح القدس بالمعمودية**، وليس كما يخطئ بعض الناس في هذه الأيام وبعض العقائد المنحرفة التي تنادي بأن الإنسان يحتاج إلى معمودية الروح القدس، فواضح (ليس من أوريجانوس فقط بل ومن جميع الآباء) أن الإنسان ينال الروح القدس بالمعمودية، وليس بعد سرِّ المعمودية وسر المسحة المقدسة.

فالرسل هم وحدهم الذين اعتمدوا بالروح القدس كمسحة خاصة بشبه المسيح في الأردن، حتى يستطيعوا أن يهبوا الروح القدس بالمعمودية، وقد استلمت الكنيسة هذا الامتياز الفائق بشبه المسيح والرسل، أن تمنح الروح القدس بالمعمودية لا أن تعمِّد الآخرين بالروح القدس!

[في المعمودية ينال الإنسان نعمة الروح القدس](٢٧).

ويوضح أوريجانوس أن شركتنا التي ننالها مع المسيح لا يمكن أن تتم

---

(٢٤) كتاب سفينة يسوع ٥.

(25) Rom. 4:9.

(٢٦) في المبادئ ١: ٣: ٥.

(٢٧) في المبادئ ١: ٣: ٧؛ ١: ٨: ٣، تفسير سفر اللاويين ٦: ٢، تفسير إنجيل يوحنا متفرقات ٣٦، تفسير رسالة رومية ٤: ٩؛ ٧: ١؛ ١٠: ١١.

إلا من الروح القدس (لذلك أكد المسيح لتلاميذه أنه خير لهم أن ينطلق ويُرسل لهم الروح القدس، لأن بهذا يستطيع المسيح أن يهب نفسه ويصير شريكاً وعريساً لكل نفس بالروح!).

[بالروح القدس نحن ننال شركة مع الابن،
"فالكلمة" فينا هو مبدأ الحياة الإلهية - مثل الروح -
و"الكلمة" هو عريس النفس](٢٨).

◎ ونعمة هذا الاتحاد الزيجي (العُرسي) الذي تُزَف إليه الكنيسة، أو النفوس الفردية المنتمية إلى الكنيسة، إنما تتحقق في المعمودية.

[إن الأسرار في كل موضع تتجاوب وتأتلف مع بعضها البعض، فهناك توافق بين صور العهد القديم والعهد الجديد: في العهد القديم كانوا يذهبون إلى الآبار والماء ليجدوا الزوجات (قصة أليعازر الدمشقي وهو يخطب رفقة لإسحق على بئر يعقوب)، والآن في جرن المياه تتحد الكنيسة (والنفس البشرية عروساً) بالمسيح!](٢٩)

[وهكذا فإن حلول "الكلمة" (اللوغُس) في أحشاء العذراء وولادته منها يتحقق من جديد في جسده السري، لأن حلول "الكلمة" الذي هو صورة الله - في النفس البشرية (في المعمودية) يحوِّلها إلى صورته](٣٠).

والنفس التي تغيَّرت إلى صورة الإنسان السماوي (يسوع) في المعمودية تصير هيكلاً للثالوث الساكن فيها:

---

(٢٨) تفسير سفر العدد ٢٠: ٢، تفسير سفر الخروج ٨: ٥، تفسير نشيد الأنشاد (أمثلة كثيرة).

(٢٩) تفسير سفر التكوين ١٠: ٥.

(٣٠) تفسير إنجيل لوقا ٢٢: ٤، تفسير نشيد الأنشاد ٢.

[فإذا ما وجد كلمة الله (المسيح) راحته في النفس (بعد المعمودية بالسيرة والجهاد الحسن) فإنه لهذه النفس يقول الرب: إليه نأتي أنا وأبي ونصنع فيه منـزلاً ونتعشى معه][٣١].
[فإن تعشَّى المسيح وأبوه داخل النفس ووجدوا فيها منـزلاً لهما، كيف لا يجدان أيضاً راحتهما هناك!!][٣٢]

وهكذا يصوِّب أوريجانوس تعليمه باختصار فائق وبسرعة وتأكيد وحذق مدهش نحو الغاية النهائية لكل النِعَم الإلهية التي تبدأ من المعمودية.

فالاتحاد بالله (الذي يبدأ بالمعمودية ويتم بالإفخارستيا) الذي به يتحقق ويكتمل تقديسنا هو يتجه أساساً لاتحادنا بالآب بروح البنوَّة الثابتة والمتصلة بالله! أما كل تدبير الخلاص فيتجه نحو هذه الغاية، أي غاية الاتحاد بالله بقبول روح التبني!

فالآب لا يجذبنا نحو ابنه ويوحِّدنا به إلاَّ لكي يصيِّرنا في النهاية مشابهين لذاته (أي مشابهين للآب، فالابن المتبنَّى بالنعمة الآخذ صورة الابن الوحيد هو حتماً على قدر ما يشابه الآب).

وإن كان الآب يعطينا الروح القدس (في المعمودية) ويملأنا بمواهبه، فلكي يوجد الصلة الثابتة التي تجعلنا قادرين أن نمسك به (أي بالآب) ونقبله في داخلنا بصورة دائمة، فنصير هياكل حية لسُكْناه بحسب وعد الابن الذي وعد أن يأتي إلى النفس مع أبيه ويصنع فيها منـزلاً.

هذا أعلى تعبير عن نعمة أُبوَّة الله الموهوبة للإنسان بالمعمودية، فهي ليست أُبوَّة مترفِّعة متباعدة بل أُبوَّة متنازلة قادرة أن تعاشر الأضعف

(٣١) تفسير إنجيل يوحنا ١٤: ٢٣، تفسير الرؤيا ٣: ٢٠.
(٣٢) تفسير نشيد الأنشاد ٢.

والأصغر بل والمنبوذ وتأكل معه خبز الدموع! «أتعشى معه وهو معي»: فكون المسيح "يتعشَّى معي" يعني أنه يقاسمني خبز آلامي، وكوني أنا أتعشى معه يعني أني أتناول من يده خبز آلامه، خبز الحياة، جسده!

ثالثاً: نعمة التبني

هي أثمن عطايا النعمة وأقصى غاية لها.

ونعمة التبني هي الثمرة المباشرة لتجسُّد ابن الله، إذ أخذ طبيعتنا البشرية لتكون له خاصة، وبتكميله فداء الإنسان بالموت والقيامة اللذين أكمل بهما كل قضاء الله ضد الخطاة الذين بقيامته أعطاهم حكم براءة (تبرير)، **نقلهم من عبيد إلى أحرار أولاً**.

ثم إذ وهب الله للإنسان الروح القدس، أعطى للإنسان أن يكون شريكاً في هذا الموت عينه وهذه القيامة، واقتبل في كيانه وخلقته الجديدة روح يسوع المسيح بسرَّي المعمودية والإفخارستيا اللذين بهما أخذ الإنسان نعمة جديدة، هي مشابهة ابن الله والاتحاد بجسده كعطية مجانية من يسوع المسيح بشهادة الروح القدس الذي يشهد لأرواحنا **أننا صرنا أبناء الله بالنهاية**.

أي أن التبني تمَّ لنا أولاً: بالفداء على الصليب، وثانياً بالتبرير بالقيامة، وثالثاً: بالاتحاد بالمسيح، ونوال صورته بالروح القدس في سرَّي العماد والإفخارستيا.

نعمة التبني في الإنجيل والرسائل:

والمعنى الذي يحمله سر التبني في الإنجيل عميق للغاية، فهو يعني صلة قُرْبى جديدة لله من خلال يسوع المسيح وبعمل الروح القدس. فالتبني هو الإصلاح الأكثر وضوحاً لمفهوم الشركة في الطبيعة الإلهية، فالشركة في الطبيعة الإلهية لا تفيد شيئاً أكثر من أننا صرنا أبناء لله بالنعمة.

ونعمة التبني، في الحقيقة، كما نستشفها من روح الإنجيل - هي استعلان أُبوَّة الله. فالتبني واقع إلهي حي يتناسب مع الله ويُفرِّح قلبه أكثر بما لا يُقاس مما يُفرِّح الوالد الجسداني بابن جديد يولد له.

لذلك فالتبني لله الذي اكتسبه المسيح لنا بموته وقيامته كان محور كل رسالته وحياته وموته. ولقد نجح المسيح في الكشف عن أُبوَّة الله المستعدة لتبنِّينا قبل أن يتقدَّم إلى الصليب. ففي مواقف كثيرة كالموعظة على الجبل، استطاع المسيح أن يكشف لنا عن قلب الله كأب فائق الحنو واللطف الكاشف أعماق قلوب البشر، باحثاً عن حب الإنسان ليحتضنه ويسكب عليه مراحم أُبوَّته التي تفوق الوصف.

ولقد مهَّد المسيح لموضوع التبني - قبل أن يُدخلنا فيه بصليبه - بتوضيح بنوَّته الفائقة والفريدة لله، وبالكشف عن أُبوة الله الخاصة به وحده والفائقة على كل علاقة أخرى.

من هنا كانت دعوة المسيح في الإنجيل التي بدت غريبة على أسماع اليهود أن كل مَنْ يسمع كلامه ويؤمن به ويسير وراءه ويتألم من أجله يصير ابناً لله! «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله» (يو ١: ١٢). والذي يرفض المسيح يرفض الآب ويمكث عليه غضب الله (يو ٣: ٣٦)! وبهذا جعل المسيح نفسه الوسيلة الوحيدة التي يصير بها الناس أولاد الله، وذلك كونه الابن الوحيد لله! هذا الكلام لم يَطقْ اليهود سماعه، لأن سر الصليب لم يكن قد استُعلن بعد، الذي أثبت به المسيح جدارته الفائقة أنه قادر أن يأتي بأبناء كثيرين إلى المجد (عب ٢: ١٠). «كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي وليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومَنْ أراد الابن أن يُعلِن له» (مت ١١: ٢٧).

فبنوة المسيح لله بصورة مطلقة وجوهرية هي المصدر الوحيد الذي نالت به البشرية بنوتها لله بالنعمة. ونحن يستحيل علينا أن نذوق أمجاد أُبوَّة الله إلاَّ بقدر التصاقنا الشديد بالابن الوحيد. ولكن علينا أن نثق تماماً أن الله على الدوام طالبٌ أبناء له بإلحاح، من واقع حُبِّه الأبوي المتفجِّر. وبقدر ما نشابه الابن الوحيد في كل شيء؛ بقدر ما يَستعلن لنا الآب أحشاء حبه الأبوي.

أما مشابهتنا للمسيح الابن الوحيد التي بها يستعلن حب الآب لنا، فلا تتوقف فقط على جهدنا النسكي وسلوكنا الأخلاقي، بل تكمل وتُستزاد بصورة غامرة في الأسرار المجانية «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣: ٢٦، ٢٧). هذا الوعد ينبغي أن يكون أساساً متيناً لجهادنا النسكي.

هنا لِبْس المسيح الذي يشدِّد عليه القديس بولس الرسول ويقرنه مراراً بخلع العتيق أيضاً هو في الحقيقة أكثر من طاقة المجهود الإنساني، سواء بتغيير السلوك أو تعديل الأخلاق، ولكنه نعمة السر وسر النعمة الفائقة التي استودعها المسيح في **المعمودية**.

ففي المعمودية تلتحم النفس البشرية بروح المسيح في وضع سري لتصير معه ”واحداً“ بالفعل، وذلك بانسكاب حياة المسيح داخل النفس البشرية، فيصير المسيح مبدأ حياة فائقة للطبيعة:

[لأن حلول الكلمة ”اللوغس“ الذي هو صورة الله في النفس (في المعمودية) **يحوِّلها إلى صورته**]، [فاللوغس ”الكلمة“ هو إذن مبدأ

الحياة] [٣٣].

[المسيح إذن هو قداستنا لأنه هو القداسة عينها، **وهو يقدِّسنا لأنه يُشركنا في قداسته]** [٣٤].

إذن، فعملية تقديمنا كأبناء لله عملية سرية للغاية يضطلع بها المسيح بنفسه مبكراً جداً في المعمودية، وعلى مدى اشتراكنا في جسده المحيي ودمه الكريم، إذ يحوِّلنا إلى صورته بسكْب بنوَّته فينا، أو بالحري يسكب أرواحنا في قالب روح بنوَّته فتنطبع علينا صورة وجهه «إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم» (غل ٤: ١٩)، ويُشركنا في ميراث بنوَّته لله على قدر سلطانه في إخلاء ذاته، وبإعطائنا هذا الحق بختم دمه وتعضيد روح قيامته من بين الأموات.

والمسيح يعتمد اعتماداً وثيقاً على الروح القدس في حصولنا على كل ما للمسيح واتحادنا فيه «إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له» (رو ٨: ٩). والروح الذي يهبه لنا المسيح هو هو دائماً روح تعضيد «روح التبني» (رو ٨: ١٥). وهكذا بالنهاية نصير في نظر الله «**مشابهين صورة ابنه** ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩).

نعمة التبني في الإنجيل توحي بأنها ذات اتصال سرِّي بالله:

نقرأ في إنجيل يوحنا الرسول ورسائله مراراً وتكراراً أن كل الذين اعتمدوا فهم يولدون لله من الماء والروح، هؤلاء يولدون **من الله**. والمطلوب من القارئ أن ينتبه للعلاقة السرية القائمة بين عبارة «**المولود من الله**» وعبارة أخرى تجيء مرادفة للعبارة الأُولى «**هو من الله**».

(٣٣) أوريجانوس في تفسير إنجيل لوقا ٨، ويوحنا ١: ٢٧.

(٣٤) أوريجانوس في تفسير إنجيل يوحنا ١: ٣٤.

مولود من الله:

+ «كل مَنْ يؤمن أن يسوع هو المسيح **فقد وُلِدَ من الله**» (١يو ٥: ١).
+ «كل مَنْ يصنع البر **مولود من الله**» (١يو ٢: ٢٩).
+ «كل مَنْ هو **مولود من الله** لا يفعل خطية» (١يو ٣: ٩).
+ «ولا يستطيع أن يُخطئ لأنه **مولود من الله**» (١يو ٣: ٩).
+ «كل مَنْ يحب فقد **وُلِدَ من الله** ويعرف الله» (١يو ٤: ٧).
+ «كل مَنْ **وُلِدَ من الله** يغلب العالم» (١يو ٥: ٤).
+ «كل مَنْ **وُلِدَ من الله** لا يخطئ» (١يو ٥: ١٨).
+ «**المولود من الله** يحفظ نفسه والشرير لا يمسُّه» (١يو ٥: ١٨).

ويعود القديس يوحنا في مواضع أخرى يؤكِّد أن المولود من الله هو من الله بمعنى أن هناك علاقة سرية تقوم بين الله والذي يولَد من الله. فيصبح المولود من الله يستمد كيانه من الله باتصال سرِّي:

+ «**أنتم من الله** أيها الأولاد وقد غلبتموهم لأن الذي فيكم (روح المسيح) أعظم من الذي في العالم» (١يو ٤: ٤).
+ «**نحن من الله** فمَنْ يعرف الله يسمع لنا **ومَنْ ليس من الله** لا يسمع لنا» (١يو ٤: ٦).
+ «نعلم أننا **نحن من الله**، والعالم كله قد وُضِعَ في الشرير» (١يو ٥: ١٩).

وهكذا نجد أن عبارة «المولود من الله» تقابلها عبارة توضيحية «هو من الله»، وهذا يفيد أن عملية التبني ليست منحة وحسب، بل شركة في الله، لأننا نعلم تماماً أن المسيح يحيا بالفعل في أولاد الله.

لهذا يطالبنا المسيح وهو على حق في مطالبته «فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (مت ٥: ٤٧)، «فكونوا

رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم» (لو ٦: ٣٦).

هنا تقوم المطالبة على أساسين:

الأول: أنه طالما نحن نملك حياة المسيح فينا، فنحن قادرون بالمسيح أن نبلغ إلى الكمال المسيحي الذي يُرضي الآب.

الثاني: أن الابن المتبنَّى طالما هو على صورة الابن السمائي وعلى صلة كيانية حية وفعَّالة بأبيه، فهو قادر أن ينمو كما يشاء الآب.

نعمة التبني
عند آباء الكنيسة

"الغاية النهائية من سر التجسُّد هي توصيل نعمة التبني للبشرية"، جملة تكاد تكون مشتركة لدى جميع الآباء. وهي تعبِّر عن العقيدة الرئيسية في الكنيسة. أول مَنْ قالها هو القديس إيرينيئوس، ولكن وُجِدَت ضمناً في تعبيرات القديس إغناطيوس الأنطاكي أيضاً.

١. *القديس إغناطيوس*: (٣٥-١٠٧م)

محور تعليم القديس إغناطيوس هو "الاتحاد بالمسيح". وبينما نجد القديس بولس الرسول يركِّز تعليمه العقيدي على المعمودية بصورة سرية، نجد القديس إغناطيوس **يركِّز بنوع خاص على الإفخارستيا والاستشهاد**. ولكن لا يفوت القديس إغناطيوس اعتبار المعمودية بدءاً حتمياً للاتحاد بالمسيح:

بعض أقواله:

[المسيحيون يحصلون على المسيح داخل أنفسهم، وهم حاملون للمسيح وهياكل للمسيح، والإفخارستيا واسطة الخلود، وهي الدواء الذي يلغي سلطان الموت، والطعام الذي يجعلنا في اتحاد مع المسيح إلى الأبد.

والذين اتحدوا بالمسيح **صاروا واحداً مع الآب!** (بالتبني).

فالمسيحيون يُحسبون **حاملي الله** Theophores وأجساد المسيحيين

هي هياكل حية لله **مملوءة من حضرة الله، هم شركاء الله**.

على أن الوحدة الكاملة مع يسوع المسيح والله الآب ستتحقق تماماً في الخلود في الحياة الأبدية](٣٥).

٢. *القديس إيرينيئوس*: (١٣٠-٢٠٠م)

محور تعليم القديس إيرينيئوس هو **"سر التجسُّد الخلاصي"** الذي صار خلاصاً للناس المغلوبين من الخطية والموت والشيطان.

◎ المعيار الأعلى عند القديس إيرينيئوس جملته المشهورة التي كررها عدة مرات:

[كلمة الله صار إنساناً لكي يصير الإنسان ابناً لله](٣٦).

والقديس إيرينيئوس يوبِّخ الهراطقة (الإبيونيين) باستعارة قول المزمور على لسان المسيح عندما قال: «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم، **لكنكم مثل الناس تموتون**».

[إنه يخاطب هكذا الذين يرفضون **نعمة التبني** ويحتقرون تجسُّد كلمة الله ويحرمون الإنسان من الصعود نحو الله](٣٧).

أي أن الإضافة الأخيرة «مثل الناس تموتون» جعلها القديس إيرينيئوس تخصُّ الهراطقة الذين رفضوا الحياة الأبدية برفضهم عقيدة التبني التي ترفع الإنسان نحو الله.

ويلاحظ القارئ أن جملة القديس إيرينيئوس عن عقيدة التبني الشهيرة: **[كلمة الله صار إنساناً لكي يصير الإنسان ابناً لله]** هي الأصل الذي

---

(٣٥) الرسالة إلى أفسس ٤: ٢ - مغنيسيا ١٢، ١٤: ١، فيلادلفيا ٧: ٢، بوليكارب ٢: ٣.

(٣٦) ضد الهرطقات ٣: ١٩: ١، ٣: ١٨: ١ و٧، ٤: ٢٠: ٤، ٥: ١٦: ٢ و٣.

(٣٧) ضد الهرطقات ٣: ١٩: ١، ٣: ٦: ١، ٤: ١: ١.

فسَّره القديس إيرينيئوس نفسه وبقية الآباء العظام القديسون أثناسيوس وكيرلس وباسيليوس وغريغوريوس اللاهوتي، وكافة الآباء الذين كتبوا باللغة اليونانية، أن **التجسُّد أوصل الإنسان بالنهاية إلى "التأليه"**، وهي العقيدة الآبائية التي تبدو لنا الآن أنها صعبة الهضم وغير مستساغة على الأسماع، ولكن تفسيرها اللاهوتي في الحقيقة ينحصر في دائرة عقيدة التبني، باعتبار أن عطية التبني التي أُعطيت للعبد المتبنَّى تشمل ضمناً التجنُّس بجنس السيد المتبنِّي، حيث يصبح له حق الميراث. فنحن أبناء الله في شخص يسوع المسيح ووارثون معه لله، إذن فنحن قَبِلْنا التجنُّس بالجنس الجديد.

فالتأليه عند الآباء لم يَزِدْ عن كونه امتداداً لمفهوم التبني، وكان في أيامهم مُستساغاً لأنه كان متداولاً عند عامة الناس.

وعقيدة التبنِّي بَلْوَرَها القديس إيرينيئوس في شرح لاهوتي مختصر مُبْدِع كرره عدة مرات هكذا:

[كلمة الله **صار ابناً للإنسان** حتى يدخل الإنسان في شركة مع كلمة الله، فينال الإنسان التبني **ويصير ابناً لله**](٣٨).

فالتجسُّد كان الوسيلة الوحيدة للحصول على التبني ومشابهة الله والتجديد بالروح القدس.

٣. نعمة التبني عند القديس أثناسيوس: (٢٩٦-٣٧٣م)

أساس عقيدة التبني عند القديس أثناسيوس هو أن الطبيعة البشرية خُلقت (ككل شيء مخلوق) **قابلة** للفساد (ولكن غير فاسدة)، ومتباعدة تباعداً لانهائياً عن الله.

---

(٣٨) ضد الهراطقة ٣: ١٩: ١٠.

◎ مشاركة "الكلمة"، الذي هو الصورة الوحيدة والكاملة للآب السماوي، أُعطيت لنا كنعمة مجانية. والإنسان خُلق أصلاً بواسطة "الكلمة" لوغس λόγος وكانت جبلة آدم على صورة "الكلمة" أي ناطقة λογικός (لوغيكُس). وبذلك خُلق قادراً أن يصير **شريكاً للكلمة في المعرفة الفائقة للآب**.

هذه المعرفة الفائقة للآب هي هي نفسها الوجود في الحياة الأبدية «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧: ٣). وهذه في عرف القديس أثناسيوس منتهى السعادة الأبدية. وسقوط آدم (سقوط عن المعرفة الفائقة) أنْهَى على سعادته وحياته الأبدية.

◎ تجسُّد الكلمة = اللوغُس، غايته أن يجدِّد ويكمِّل هذا التدبير الذي أوقفته خطية آدم. **"فالكلمة"** تجسَّد، لكي ينقل هذه المعرفة الإلهية الفائقة بالآب إلى الإنسان حسِّياً، فيحصل على الحياة الأبدية والسعادة مرة أخرى، وكان على "الكلمةَ" أن يلغي الموت بموته وقيامته حتى يرفع سلطانه عن الإنسان، ويسترد للإنسان خلوده وعدم فساده وسعادته الأبدية.

◎ وفي كتب القديس أثناسيوس الدفاعية، نجد هذه الخلاصة الجوهرية لعقيدة التبني قائمة على أساس الاتحاد بالله، الذي يتم عن طريق المشاركة في الكلمة، الذي هو الصورة الوحيدة لله. وقد صار ذلك ممكناً بما قام به **"الكلمة"** من **تجسُّد وموت وقيامة**(٣٩).

وفي دفاعه ضد الآريوسيين يستكمل عقيدة التبني هكذا:

أولاً يركِّز على أنه لا يوجد إلا ابن وحيد للآب وهو الصورة الوحيدة

---

(٣٩) ضد الوثنيين ٢ و٨ و٣٤، تجسُّد الكلمة ٣ و٥ و٧ و٨ و١١ و١٧ و٥٤.

والكاملة للابن السماوي، كامل في وحدته وفي مساواته للآب في الجوهر.

وهو وحده الذي يعرف الآب والذي يشترك في أزليته، وبالتالي صار هو وحده القادر أن يُشركنا في صورته وفي خيراته، وإذ نحن الآن شركاء للكلمة بالنعمة، فنحن أبناء الله في الابن الوحيد، وجميعنا متحدون معاً في الكلمة كما أنه هو متحد بأبيه.

وهكذا صرنا نحن فيه متحدين بأبيه.

وهو بذلك يُعرِّفنا مَنْ هو الآب، لأنه أبوه الشخصي، ولأنه الوحيد الذي يعرف الآب.

هذا الاتحاد الذي بلغناه في التبني هو المقابل لكل تدبير التجسُّد.

فلأن الابن **اتخذ لنفسه جسداً بشرياً** حقيقياً، أصبحت **النعمة المعطاة لنا متوافقة مع كياننا الجسدي!**

فالجسد (البشري بنوع عام) بسبب أن الكلمة قد حلَّ فيه، لذلك صار قادراً على قبول النعمة. ولأن الكلمة قد تفضَّل بأن يتحد بطبيعتنا ويصير مشابهاً لنا بحسب الطبيعة، **فقد صار لنا عن طريق هذه المشابهة الطبيعية أن نتحد نحن ببنوَّته للآب**، فنحن أبناء بفضل وجود الابن فينا الذي تجسَّد ليكون حاضراً فينا ويوِّحدنا بالله.

و"الكلمة" **الابن** أرسَل لنا من عند الآب الروح القدس الذي هو **«روح التبني»** (غل ٤: ٥).

والروح إذ حلَّ فينا يصرخ «يا أبَّا. الآب» شاهداً لأرواحنا أننا أبناء الله وأنه هو «روح التبني» (رو ٨: ١٥). وهذا الروح عينه هو ختم

الابن الذي يطبعنا على صورته أي صورة الابن[٤٠]!

٤. نعمة التبني عند القديس كيرلس الكبير: (تنيح ٤٤٤م)

[نحن أبناء الله حسب الطبيعة φυσικῶς (في المسيح) فيه وفيه وحده! كذلك نحن أبناء الله بالمشاركة μεθεκτικῶς وبالنعمة في الروح القدس][٤١] **القديس كيرلس الكبير**.

أي أن القديس كيرلس يرى بنوَّتنا قائمة في شخص المسيح نفسه بمفرده كمندوب عن البشرية كلها. فالبشرية كلها متبنَّاة في شخص يسوع المسيح. وهذه حالة من البنوَّة فريدة وفائقة نالتها البشرية بالتجسُّد في شخص المسيح وحده. لذلك سمَّاها "بنوَّة حسب الطبيعة".

كذلك يرى لنا رباط بنوَّة أخرى لله فينا، إنما باتحادنا نحن بالمسيح أي بالمشاركة، وذلك بواسطة الروح القدس، **وهذا هو التبني بالنعمة**.

يعود القديس كيرلس ويكرر بشرح مقتضب جداً:

[وفيه وبه نحن أبناء الله،

فيه وفيه وحده حسب الطبيعة φυσικῶς نحن معتبرون أبناء، أما بحسب النعمة فنحن أبناء **به** في الروح][٤٢] **القديس كيرلس الكبير**.

هذان النصان يلخِّصان تعليم القديس كيرلس الخاص بنعمة التبني. فالتبني لله متوقف على ومتصل بالتجسُّد الخلاصي. فبواسطة التجسُّد، قد

(٤٠) أهم النصوص: ضد الأريوسيين ١: ٩ و١٦ و٣٤ و٤٥ و٤٦ و٤٩؛ ٢: ٥٩ و٦١ و٧٠ و٧٤؛ ٣: ١٠ و١٠ و٢٠ و٢٢ و٢٣ و٣٣، الرسالة إلى سيرابيون ١: ٢٣ و٢٥.

(41) De Recta Fide. (الإيمان المستقيم) 30, P.G. 76, 1177 a.

(42) De Incarnat. Unigenit. (تجسد الابن الوحيد) P.G, 75, 1229 b.

صار المسيح المساوي للآب في الجوهر مساوياً لنا في طبيعتنا. والشيء الذي يجعله مساوياً لنا إنما هو الجسد.

[حيث أن الكلمة يحملنا في نفسه بسبب حمله للطبيعة البشرية، فلهذا السبب يمكن أن يُدعَى جسده جسداً لنا نحن أيضاً.](٤٣)

لهذا يرى القديس كيرلس أن تجسُّد المسيح بحد ذاته منحنا في شخصه، وفي شخصه فقط، بنوَّة لله اعتبرها بنوَّة φυσικῶς أي حسب الطبيعة.

فمن واقع التجسُّد، قد صار للمسيح علاقة كيانية ontological مع البشرية بأسرها. فالبشرية صار لها وجود فيه، وجود فعلي حقيقي بالجسد.

غير أن هذا الوجود البشري المتداخل فيه هو وجود شخصي خاص بالمسيح فقط على مستوى "الطبيعة" الخاصة به هو. وهذا لا يكفي بحد ذاته أن يمنحنا التبني منحة فردية لكل واحد منا، فهو تبني عام في صورة كامنة منحصرة في شخص المسيح فقط، مع أنها جذرية وأساسية، أي تشمل الطبيعة البشرية عامة.

لذلك لابد أن يُستعلن التبني وينتشر ويتوزع بالنعمة.

إذن، لابد من عمل التقديس الذي يقوم به "جسد المسيح" المحيي في الأسرار.

كذلك يتحتم تجاوب الإنسان مع النعمة (نعمة التقديس) في الأسرار بحرية الإرادة بواسطة الإيمان. فالقديس كيرلس يعتبر أن هناك قرابة مزدوجة بين البشر وبين ابن الله.

◎ قرابة طبيعية φυσικῶς (باتحاده هو بنا في التجسُّد).

(٤٣) تفسير إنجيل يوحنا ٩ .P.G. 74, 280 b

◎ قرابة مكتسبة بالنعمة والمشاركة (باتحادنا نحن به في الأسرار بالإيمان) والنعمة التي تُكسبنا حالة التبني لله تتم في سرين أساسيين:

- نعمة المعمودية، حيث يقدِّسنا المسيح بواسطة إعطائنا من روحه،
- ونعمة الإفخارستيا، حيث يقدِّسنا المسيح بواسطة اتحادنا بجسده المحيي.

ونحن بهذا نتحد بالمسيح بالروح القدس وبالجسد المحيي.

غير أن هذا الاتحاد ليس اتحاداً جوهرياً، بل هو اتحاد "**نسبي**" و"**عَرَضي**". ومع هذا فهو اتحاد حقيقي، لدرجة أنه يجعلنا بالحق "شركاء الطبيعة الإلهية". وبمشاركتنا للابن في الروح وفي الجسد نصير إخوة له، وبهذا ننال التبني ونصير أبناء للآب.

ولكن بنوَّتنا للآب **هي على مستوى النعمة**.

ثانياً: في حياتنا النسكية

- [النعمة خميرة أُلقيت في طبعنا للتجنُّس بالملكوت].
- [النعمة هي بمثابة الشمس للعين لترى الأشياء المنظـورة لأنـه بدون النور الإلهي لا تقدر النفس أن تُدرك الحق].
- [المجازاة "الكاملة" العتيدة لأعمالنا هي من فضل النعمة؛ وأما إعداد السراج واقتناء الزيت فهو لنا].

مار إسحق

١ - كيف نقتني النعمة؟

وما هي علاقة النعمة بالجهاد النسكي؟

يقول الآباء إن الله دائماً هو المبتدئ بالصلاح، والنعمة - في الوضع الصحيح - تزكّي الجهاد، والجهاد يديمها، ولا غنى للواحد عن الآخر. وأوضح برهان يقدِّمه الآباء على ذلك هو أننا بالمعمودية ننال نعمة الروح القدس لغفران ما فات وعربوناً لجهاد آت، فإذا جاهدنا بالنعمة ضد الخطايا وثابرنا ونجحنا، ننال نعمة أكثر ترفعنا دائماً فوق ضعفات الطبيعة باستمرار.

ولكن يبقى الله دائماً صاحب المبادرة في إعطاء نعمة يتحرك بها في ملء حريته، وفي هذا يقول القديس مقاريوس في عظاته:

[إذا جاهد الإنسان لكي يصير عزيزاً عند الله ومقبولاً لديه، حينئذ سيرى حقاً بالاختبار = πεῖρα وبالإحساس اليقيني = αἰσθήσεις خيرات السماء والفرح الذي لا يُنطق به، وغِنَى الله الذي لا يُحدُّ، الأشياء التي لم تَرَها عين ولم تسمع بها أُذن ولم تخطر على قلب بشر. لأن روح الرب يُستعلن لراحة أحباء الله الأبرار ولأجل مسرتهم وإسعادهم وحياتهم الأبدية].

القديس مقاريوس الكبير - عظة ٤ : ١٢ (الآباء اليونانيون ٤٨١ ب)

ومار إسحق يقدِّم لنا باختصار الخطوات الهادية للطريق النسكي، من الميمر الثاني في رؤوس المعرفة - الباب ٣٣ - الجزء الرابع.

أولاً: [نأخذ الروح القدس من العماد كالعربون لتبطيل الخطية] = "وأنعم لنا بالميلاد الفوقاني من الماء والروح" (**القداس الإلهي**).

ثانياً: [بالروح القدس ننال قوّة لنقاتل قُبالة الآلام (شهوات الخطية والشيطان)].

ثالثاً: [بالأعمال والجهاد مقابل الآلام (شهوات الخطية) نؤهَّل لزكاوة القلب (الزكاوة هي المقابل الضدُّ للآلام)، فهي نقاء القلب من الشهوات، وهي طهارته، وهي تُستخدم أيضاً في هذا التعبير: "الدم الزكي")].

رابعاً: [بالوصول إلى طهارة القلب يزيد الروح القدس لنا **قوّة** لكي نستطيع أن نكون فوق الطبع، وأن نقبل شركة - مجد ربنا - باستعلان نور مجده غير المنطوق به].

خامساً: [وهكذا يكمُل القديسون بالنعمة ليكونوا فوق الطبع (ضعفات الطبيعة) بالاتحاد بيسوع المسيح].

[لذلك فالروح القدس يُدعَى "مكمِّل القديسين"] **مار إسحق**.

واضح هنا أن المصدر الأول لنوال النعمة هو المعمودية، حيث النعمة لا يمكن فصلها عن المسيح والروح القدس. إذن، فنحن جميعاً قد نلنا النعمة لأننا متعمِّدون، وقد نلنا نعمة الروح القدس كعربون لتبطيل الخطية، فأصبحنا في الحال مطالَبين بالجهاد ضد الخطية وإغراءات الشيطان، حيث جهادنا هنا يكون مضمون النصرة لأنه يكون بعمل قوّة الروح القدس المتخصِّص في إبطال الخطية، كالوعد الإلهي.

وهنا تظهر المعمودية كفعل إلهي دائم العمل والتأثير في حياتنا وقوة دائمة تسند جهادنا.

ولكن مار إسحق ينبِّهنا، في الدرجة الثانية، أنه ليس بقوتنا أو نشاطنا أو ذكائنا، بل بالروح القدس ننال القوَّة التي نقاتل بها قُبالة الآلام أي الشهوات وإغراءات الشيطان، أي أن **الجهاد أو القتال قُبالة الخطية لا ينجح بدون قوَّة أو نعمة الروح القدس**. لذلك ينبِّه مار إسحق بشدة **أن نطلب قوَّة الروح القدس بإلحاح ومكابدة شديدة**، اسمعه يقول:

[تضرَّع إلى الله، سُبْحانه، دائماً، وابْكِ تجاه نعمته ونُحْ، وكابد الشقاء إلى أن يُنْفِذ(١) إليك المعونة، لأنك إن رأيت مخلِّصك قريباً منك لن تنهزم من العدو المعاند لك].

مار إسحق – الباب السادس، الجزء الثالث

هنا يلتحم الجهاد مع النعمة والنعمة مع الجهاد، حتى يكاد يتعذر تماماً أن نفرِّق أيهما السابق.

كذلك نجد هنا من كلام مار إسحق حالة جديدة من التأكيد المفرح والمشجِّع والمعزِّي جداً بقوله:

[لأنك إن رأيت مخلِّصك قريباً منك لن تنهزم من العدو المعاند لك] **مار إسحق.**

هنا يسجل مار إسحق حالة جديدة للإنسان، إذ بعد أن كان يصارع الخطية ويقاتل ميولها وانحرافاتها وجَوَّها المظلم الكئيب ويسقط ويقوم، كطقس الجهاد والقتال، ينال بالنعمة قُرْباً من المخلِّص يؤمِّن له عدم الانهزام من العدو. فلا يعود الجسد يتسلط ولا الأعضاء تتمرد ولا غرور الخطية ولا إغراءات الشيطان، بل كل الحياة والآمال وكل الرجاء للمسيح ولروحه القدوس.

(١) يُرسِل.

ويستطرد مار إسحق في مكان آخر فيصف هذه الحالة من التغيير أنها أحياناً تأتي بغتة، أي أنه أثناء الجهاد والقتال، وبينما الإنسان في مرارة القيام والسقوط (ولكن وهو متشبث بالفضيلة)، تشرق عليه فجأة قوَّة مجدِّدة من النعمة.

[فإذا أنهض الإنسان ذاته بحرارة ونفض عنه البرودة والثقل (القتالات) وبدأ يغصب نفسه قليلاً قليلاً، حينئذ تدنو منه النعمة كما كانت، وتأتي إليه قوَّة أخرى مُخْفَى فيها كل خير وأنواع معونات كثيرة، فيتعجب الإنسان ويندهل كيف (انقلب) الثقل الأول إلى خفة وقوة متجددة، وكيف قَبِل بغتة هذا التغيير ...

أرأيت يا أخي كم مقدار ما يبلغ الإنسان من النعمة إذا ما أيقظ ذاته قليلاً وصبر في أوان القتال؟].

مار إسحق، الباب ١٤، الجزء الثالث

ومار إسحق يشجِّع على الجهاد جداً معتبراً أنه مدخل رسمي لنوال مفاعيل النعمة:

[لأنه من الحق الواضح أن أي إنسان إذا رذل الشرور وتخلى عنها وابتعد عن كل المعاملات الباطلة وتمسك بالحياة الجديدة، فإنه في زمان قليل يحس بالمعونة. وإن هو جاهد قليلاً فإنه يصادف عزاء لنفسه ويحظى بغفران خطاياه ويؤهَّل للنعمة].

مار إسحق، الباب الأول، الجزء الثالث

كذلك وبنفس القوَّة والأصالة، يطالِب القديس مقاريوس بالجهاد وتأجُّج نار الحب لله لنوال شركة الروح:

[النفوس التي لها حب متأجج من نحو الله لا يخمد، تكون مستحقة

للحياة الأبدية، ولذلك تكون أهلاً لأن تُعتَق من الشهوات وتنال شركة في نور الوحدة السرية غير الموصوفة مع الروح القدس في ملء النعمة ἐν πληρώματι χάριτος وعلى العكس من ذلك، فإن جميع النفوس المدلَّلة الرخوة، بسبب كونها لا تزال في الجسد، لا تطلب التقديس بمثابرة وصبر، ليس التقديس الجزئي بل تقديس القلب بالتمام - بل ولا ترجو كمالاً في بصيرة، ولا يقيناً في شيء πλειότητι μετὰ πάσης αἰσθήσεως καὶ πληροφορίας هذه النفوس لم تَنَلْ الانعتاق من شهوات الشرور].

القديس مقاريوس، عظة ١٠، الآباء اليونانيون ٥٤١

ويحث القديس مقاريوس على طلب نعمة الروح لتكميل بر الوصايا وفعل الفضائل:

[فكل مَنْ وجد، إذن، هذا الكنز السماوي وامتلكه في باطنه، وهو كنز الروح، فإنه يكمِّل في روحه بر الوصايا كله وفعل الفضائل تماماً بنقاوة بدون عيب، وبلا تغصُّب وصعوبة.

فلنتوسل إلى الله، إذن، ونطلب منه باجتهاد، ونسكب أمامه تضرُّعاتنا، لكي يَهَبَنا مجاناً كنز روحه، ولكي نقدر بذلك أن نسير في جميع وصاياه بلا ملامة وبدون عيب، ونكمِّل بر الروح كله بنقاوة وكمال بواسطة الكنز السماوي الذي هو المسيح.

لأن المسكين والعريان والفقير الهالك من الجوع لا يقدر أن يبتاع شيئاً في العالم، فإن فقره يمنعه. وأما مَنْ كان حائزاً كنزاً، فإنه بسهولة وبلا تعب يتسلَّط على أي أملاك يشاءها كما قلنا.

كذلك النفس العريانة المحرومة من شركة الروح، التي هي في شدائد الخطية القاسية فإنها، وإن أظهرت مهما أظهرته، فلن تثمر

ثمرة واحدة من ثمار روح البر بالحق والصحة، إلا إن حصلت أولاً على شركة هذا الروح ذاته.

ولكن يجب أيضاً على كلٍ أحد أن يغصب نفسه على التوسل إلى الله لأجل أن يُحسب أهلاً لنوال ووجود كنز الروح السماوي لكي يقدر بلا تعب وصعوبة أن يتمِّم وصايا الرب كلها بطهارة وبدون عيب، وإنْ لم يمكنه أن يفعل هذا قبلاً ولو بالاغتصاب، لأن النفس إذا كانت محرومة من شركة الروح فكيف تقدر أن تحوز هذه الأملاك الروحانية دون أن يكون لها كنز الروح وغناه.

وأما النفس التي تجد الرب، الذي هو الكنز الحقاني، بطلب الروح والإيمان ومداومة الصبر، فإنها تثمر ثمار الروح كما قلنا، وتُكمِّل برَّ الرب ووصاياه كلها، التي أَمَر الروح فيها وبها بنقاوة من دون تقصير أو عيب].

القديس مقاريوس، العظة ١٨، صفحة ١٦٧، ١٦٨

ولكن القديس مقاريوس يعود فيحذر بشدة من أن وجود النعمة لا يعني أبداً وصولنا إلى الكمال:

[إذن، فَمَنْ هو الذي وصل إلى الدرجة الكاملة على الدوام؟ أو مَنْ ذاق وحاز على الاختبار الكامل للحياة (الأبدية)؟ حتى الآن لم أُقابل أي مسيحي كامل أو قد بلغ كمال تحرُّره. فحتى الذي حاز أعلى الأسرار والإعلانات وعِظَم مسرات النعمة، تبقى الخطية في نفس الوقت كائنة (كامنة) فيه، ولكن بسبب فيض النعمة والنور الذي قبلوه يظنون أنهم تحرروا وصاروا كاملين. هؤلاء يضلون بسبب عدم أو نقص اختبارهم ἀπειρία] **القديس مقاريوس**، العظة ٨: ٥، الآباء

اليونانيون ٥٣٢.

وكذلك فإن مار إسحق يعود ويؤمِّن الجهاد ضد الإحساس بالذات أو الاعتماد على العمل الشخصي أو الإرادة، فيؤكِّد أن **جهادنا لا يُحسب لنا على قدر كميته أو نوعيته بل بقدر حبنا لله وأمانتنا فيه!:**

[**ابتدئ بعمل الفضيلة بشجاعة**، ولا ينقسم قلبك في طريق سيرتك **على رجاء نعمة الله**، لئلا يؤول تعبك لغير نفع وتتقل عليك أعمال فلاحتك، لكي تحقَّق في قلبك أن الرب رحيم **ومجيبٌ طالبيه ومتفضِّلٌ عليهم بنعمته، لا بحسب أفعالنا بل بمقدار حبنا له وإيماننا به.]** **مار إسحق**، الباب الثالث، الجزء الثالث

كذلك، فإن مار إسحق يكشف أن نجاحنا في الجهاد هو في الحقيقة عمل خفي من المسيح الحال فينا، ويقص هذه القصة:

[قال سقراط كاتب سيرة البيعة (المؤرِّخ الكنسي) إنه في أيام يوليانس الملك كان شاب اسمه ثيئوذوروس قد دُفع للعذاب في مدينة أنطاكية لأجل اعترافه بالمسيح، وبعد عذاب عظيم مشَّطوا جسده بأمشاط من حديد حتى انتثر لحمه كله على الأرض. وبعد ذلك تركوه لما عرفوا أنه لن يعيش. ولكن الله نجَّى هذا القديس وعاش بعد هذا العذاب مدة طويلة.

وإن كاتب السيرة سأله هل كان يتألَّم كثيراً وقت العذاب؟ فأجاب: إنه كان لا يحس إلا بشيء قليل من الألم لأنه رأى شاباً واقفاً بجواره يمسح عرق جهاده ويشجِّع روحه ويقويه ويشرح نفسه، وينجيه من العذاب.

يا لمراحم الرب! ما أقرب نعمته للذين يقاسون من أجله في الجهاد، ويصبرون على الآلام ...

لا تجحد غاية الله أيها الإنسان، لأنك لست أنت الغالب، بل الرب هو الغالب فيك، وأنت تأخذ اسم الغالبين!! موهبة مجاناً!!] **مار إسحق**

ويقول القديس مقاريوس أيضاً عن عمل الروح الخفي في النفس:

[ولهذا الموجب، ينبغي لنا أولاً أن نطلب من الله باجتهاد قلب وإيمان، ليَهَبَ لنا أن نجد في قلوبنا هذا الغنى، وهو كنز المسيح الصحيح بقوة الروح وفاعليته، فإذا وجدنا فائدته فينا أولاً وهو الخلاص والحياة الأبدية والرب نفسه، فحينئذ نفيد غيرنا أيضاً لاقتدارنا على التداخل فيهم، إذ نُخرْج من كنز المسيح الذي فينا كل صلاح بالأحاديث الروحانية، فنُعلن الأسرار السماوية. لأن إرادة الآب الصالحة ارتضت بأن يحل هو مع كل مَنْ يؤمن به ويرومه، لأن المسيح قال: «الذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي، وإليه نأتي ونصنع عنده منزلاً» (يو ١٤:٢١، ٢٣). هذا ما شاءه إحسان الرب غير المتناهي، وهذا ما ارتضت به محبة المسيح التي لا توصَف، وهذا ما وعد به صلاح الروح الفائق كل منطوق، فالمجد لما للثالوث المقدس من المراحم التي تعلو على كل وصف، لأن الذين حُسبوا أهلاً لأن يصيروا بني الله ولأن يولَدوا من الروح من فوق والمسيح فيهم منيراً ومريحاً إياهم، هؤلاء يقودهم الروح بهدايات مختلفة متعددة، والنعمة تفعل في قلوبهم سراً، وتكون لهم مع ذلك راحة روحية.] **القديس مقاريوس**، عظة ١٨، صفحة ١٦٩، ١٧٠

[فلنتوسل، إذن، إلى الله ونؤمن بالمحبة والرجاء الوافر، لكي يمنحنا النعمة السماوية، نعمة موهبة الروح، حتى يتولانا هذا الروح نفسه ويقودنا إلى إرادة الله كلها، ويمتِّعنا بأنواع الراحة المعهودة التي

يمنحها هو، لكي بواسطة هذه الفاعلية وتأثير النعمة، والتهذُّب الروحاني، نُحسب أهلاً لإدراك كمال ملء المسيح، كما نص على ذلك الرسول قائلاً: «لتمتلئوا بكل ملء الروح» (انظر أف ١٩:٣)، وقال أيضاً: «حتى نبلغ جميعنا لرجل كامل على قدر قامة ملء المسيح» (انظر أف ١٣:٤). وقد وعد الرب كل الذين يؤمنون ويسألون منه بالحق، بأنه يعطيهم أسرار شركة الروح الفائقة الوصف، فبعد أن ننذر نفوسنا بكليتها للرب، يجب علينا أن نجتهد على قدر طاقتنا في المبادرة إلى إدراك الصالحات التي تقدَّمنا فذكرناها، بحيث نتعبد نفساً وجسداً ونتسمر في صليب المسيح، لعلنا نصير أهلاً للملكوت السماوي، فنمجِّد الآب والابن والروح القدس مدى الدهور آمين].

القديس مقاريوس، ص ١٧٢، ١٧٣

٢ - النعمة والتجارب

أولاً: التغيُّر من النعمة إلى التجربة، ثم من التجربة إلى النعمة:

هنا نجد كلاماً فريداً للقديس أنبا مقار ينقله إلينا مار إسحق، حيث يشرح علاقة النعمة بالتجارب كضرورة هكذا:

[ليس الضعفاء أو المنحلُّون أو غير المدرَّبين على الحياة الروحية هم الذين يقعون في التجارب، بل وحتى أيضاً الذين بلغوا الكمال وعدم التألُّم apathia، بل والذين ماتوا كلية عن هذه الحياة، هم كذلك لهم الجهاد والقتال، طالما هم في هذا العالم، ينضغطون بالآلام بسبب الجسد، وتحدث لهم تخلية ولكن بمعنى الرحمة بسبب الخوف من حرب العظمة. وهم يحتاجون إلى شفاء التوبة، والنعمة أيضاً تزكِّيهم وتقبلهم!!

هذه (الأمور) كتب عنها القديس مقاريوس بعناية كثيرة واهتمام لتذكير الإخوة وتعليمهم لئلا يميلوا إلى قَطْع الرجاء (أي اليأس) في وقت الغيارات الضدِّية (أي الانتقال المفاجئ من الرحمة والسلام، إلى الاضطراب والقلق بدون سبب).

حتى الذين بلغوا إلى رتبة الزكاوة (أي طهارة القلب والفكر) مهما كانوا سائرين بحَمِيَّتِهِمْ (أي بغيرة وحرارة)، هؤلاء أيضاً تحدث لهم عوارض الجَسَدَ ضد غرضهم ونيَّاتهم.

هذه (الأمور) باختبار حقيقي، وضعها القديس مقاريوس في رسالته مؤكِّداً أن الغيارات **تحدث لكل أحد** بمفاجأة، كتغيير الرياح، في وقتٍ بردٌ وبعد قليل حرارة! وهذا لتدريجنا وتدريبنا:

وقتٌ قتالٌ ووقتٌ معونةٌ من النعمة، وقتٌ أمواج من الاضطراب والحزن الصعب داخل النفس، ثم يحدث التغيير وتفتقد النعمة النفس وتملأ القلب فرحاً وسلاماً من الله وأفكاراً عفيفة سلامية.

واضح هنا بقوله: ''أفكاراً عفيفة سلامية''، أن سابقتها كانت أفكاراً نجسة وحشية. لذلك، ففي وقت ورود العوارض وتواتر الاضطراب للعقل لا تيأس وتقطع الرجاء، وفي وقت النعمة لا تفتخر، بل في وقت الفرح انتظر الضيقة، أي لا تقطع الرجاء كإنسان يطمعُ وينتظر أن يكون بلا قتال، وتعيش في نياح كامل بلا غيار (أي تغيُّر الأحوال الروحية) حيث لا يبقى لك جهاد ولا تعب أو شقاء من الأمور الضدِّية، لأن هذا لم يشأ سيدنا أن يعطيه لطبعنا ما دمنا في هذا العالم لئلا يتوقف جهادنا].

ويختم القديس مقاريوس كلامه هنا بقوله:

[والذي هو متخلِّف عن هذا هو من نصيب الذئاب].

ويعلِّق مار إسحق على قول القديس مقاريوس هذا قائلاً:

[يا للعجب من قول هذا القديس! كيف بكلمة صغيرة حصر هذا الفصل العميق المتعدد المعاني والأفهام، فبقوله إن المتخلِّف عن هذا هو من نصيب الذئاب يعني الإنسان الذي يريد أن يسلك بفكر خاص غير الذي عاش به القديسون والآباء من جهة هذه الحقيقة.

أما قول القديس مقاريوس أن في وقت الفرح تنتظر الضيقة، فيشرحه مقاريوس نفسه قائلاً: ''إذا اقترب الملائكة القديسون منا - في وقت النعمة - فإنهم يملأوننا من النظرة الروحانية، وجميع المضادين يهربون ويكون لنا عندئذ سلام وهدوء لا يُنطق به. ولكن إذا جاءت النعمة واقتربت الملائكة وأحاطوا بك وهرب المضادون

وابتعد المجرِّبون (الشياطين)، لا تتعظم وتظن في نفسك أنك بلغتَ الميناء وارتفعت بالكمال عن التجربة وعن المضادين ولا بقي لك عدو ولا ملاقاة شيء رديء، لأن كثيرين ضمروا هذا في نفوسهم وسقطوا في أمور خطرة ... فاعلم أنت أن قيامك ليس من حرصك ولا من فضيلتك، بل هي النعمة التي تحملك على كفها''] **مار إسحق**، ميمر في المعرفة الحقيقية والتجارب، الجزء الثاني.

ويعود مار إسحق في موضع لاحق ويلخِّص رسالة القديس مقاريوس في ''غيارات'' النعمة والحروب (أي تغيُّر الحال من النعمة إلى الحرب) هكذا:

[ويُعرف هذا من بعض رسائل القديس مقاريوس إن أردت أن تعرف رتبة القديسين الذين تتخلَّى عنهم النعمة لكي يتجرَّبوا - حتى لا يتأذوا من أفكار العظمة، لأن ألم العظمة يَثِبُ على النفس صاحبة الفضائل الكثيرة لكي يُفقرها بالكلية. وهذا هو مبدأ الرسالة: (الأب مقاريوس يكتب إلى جميع أولاده الأحباء، التي أوضح فيها بإفصاح كيف تدبر سياسة الله بالحروب وبمعونات النعمة معاً لأجل الجهاد مقابل الخطية، لكي في كل وقت يشخص القديسون بالنظر الدائم إلى الله ويتأجج فيهم حبه المقدس، وبالخوف الدائم من وَثَبِ الآلام ورُعْب الميلان نحو الخطية يُسرعون إلى الله ويثبتون فيه بالرجاء والإيمان والحب)] **مار إسحق**.

ولكن في عظات القديس مقاريوس نجد هذا المبدأ في غاية الوضوح، خصوصاً في إحدى العظات المنشورة حديثاً، والعظة رقم ٢٥:

[الذي ذاق النعمة تستعيد نفسه الحياة وتختبر الراحة السماوية التي

تُحسب أنها غريبة عن اختبارات هذا العالم، ولكن إن كانت ترجع وتتعظم بالكبرياء وتتحدث كثيراً (عن ذاتها)، فإنها تمتلئ بالخطايا وتُترَكُ لتتألم، لكي بالمرارة التي تذوقها تهرب في طلب العزاء والراحة الروحية.

ولكن إن عاد الإنسان وتهاون، فإن الشر يعود ويجد فيه مرعى بكل صنوفه، وتبتعد النعمة، حتى يعرف الإنسان بالاختبار الراحة والتعزية الروحية وما يقابلها من كآبة ومرارة الخطية. وبهذا تصير النفس أكثر بصيرة، وتعرف كيف تهرب من الشر تماماً وتلتصق بالرب بكل كيانها حتى تصير معه روحاً واحداً. لأنه إن كانت الراحة والفرح تدومان في النفس باستمرار، فإن النفس تتهاون ولا تقدِّر قيمة صلاح الرب وتجهل الامتياز الذي نالته] **القديس مقاريوس.**

وفي عظة أخرى يقول القديس مقاريوس مقارناً بين عمل روح الله في النفس البشرية وعمل أرواح الشر:

[هذا هو التغيير الذي يجب أن يتم في النفس التي أعطت إيمانها للمسيح والتي تحبه بلا انقسام.

هذا هو التجديد والتحول في كل شيء في أفكار القلب الذي تقدَّس بالروح، كما أيضاً في الأعمال الصالحة التي لله، فروح الصلاح يعمل في النفس بحق وبملء وبحضور فعَّال محسوس بنفس الطريقة التي تعمل بها أرواح الظلمة التي للشهوات التي تعمل الشر بحضور محسوس وأكيد في النفس والجسد].

القديس مقاريوس، عظة ٢٥

ثانياً: أنواع التجارب وموقف النعمة منها:

السؤال الذي يطرحه مار إسحق أولاً هو هل التجربة تأتي أولاً ثم

تأتي النعمة، أم العكس؟

هنا يقرِّر ما إسحق، وطبعاً من خبرات الآباء وكتاباتهم فيقول:
[الباري - سبحانه وتعالى - رأى بحسب حكمته أن تكون النعَم بقدر المحن!! إذ لا يمكن أن تكون الموهبة عظيمة والتجربة ضعيفة (صغيرة وقليلة)، لأن هؤلاء مرتَّبون بمقدار أولئك (أي المواهب تُعْطَى بمقدار التجارب).

فإذن، من الصعوبات والضوائق العارضة لك بسياسة (بتدبير) من الله - عزَّ وجلَّ - تدرك نفسك ما قَبِلْتَه من النعمة، لأن العزاء دائماً يكون على قدر الحزن!!

وأحياناً تَفِدُ التجربة وبعد ذلك تأتي المواهب والنِعَم.

وأحياناً أخرى تأتي النعمة أولاً ثم تعقبها التجربة. (ولكن هنا يلزم أن ندرك) أن التجربة لا تأتي على الإنسان إلاَّ بعد أن تقبل النفس (قامة) جديدة زيادة على منزلتها الأُولى. والشاهد بحقيقة هذا أن الرب اقتيد بالروح للتجربة بعد أن امتلأ بالروح القدس، وكذلك الرسل أيضاً لم يدخلوا التجارب إلا بعد أن قبلوا المعزِّي!

وهذا الأمر هو منذ البدء: أن تأتي النعمة أولاً قبل التجربة. غير أنه لابد أن يتقدَّم الإحساس بالمحن على الإحساس بالنعَم لأجل اختبار الحرية (أي أن الإنسان عندما يكون في الحقيقة مستعداً من الداخل لقبول المحَن والآلام ويستعذب مَذَاقَها حُبًّا في المسيح، تأتيه النعمة فتعطيَه القوَّة على احتمال المحن والآلام بالفعل).

لأن النعمة لا تتقدم إلى أحد البتة من قبل أن يذوق التجارب،

أي أن النعمة تتقدَّم في العقل وتبطئ في العمل (حتى يقبل الإنسان التجارب بحريته قبل أن ينال المعونة الفعلية من النعمة).

ولهذا، فعلينا في أوقات المحن أن نواجه شعورين متضادين: الفرح والخوف. الفرح لأننا استحققنا أن نسير في الطريق التي وطأتها أقدام محبِّ الكل (المسيح على الصليب)، وأقدام القديسين، لأن المحن تكشف عن ذلك؛ وأما الخوف فهو لئلا تكون تجربتنا بسبب العظمة، ولكن المتواضعين يقدرون أن يميِّزوا بالحكمة والنعمة التي فيهم ما هي التجربة التي تأتي بسبب العظمة وما هي التجربة التي تأتي لنمو المحبة. أما الصنف الأول أي التجربة التي بسبب العظمة، فهي تَخْلية للتأديب بسبب تعظُّم النفس وتوقُّحها، وأما الصنف الثاني فهو تجربة لتزكية السيرة والنمو في النعمة.

(أ) أما أصناف التخلية من الله بسبب العظمة للتأديب، فتكون على شكل تجارب شيطانية ظاهرة خارجة عن حدود الطبيعة، مثل إحساس قوي بالزنا يُطلَقُ عليهم لتوضيعهم، سرعة الغضب، التشبُّث بالرأي، تنفيذ الإرادة بلا هوادة، حب الغلبة بالكلام، الانتهار الصعب، تهاون القلب في العبادة الداخلية، التجديف الداخلي، الازدراء بمقادير الناس، الاستهانة بكرامة الآخرين، محبة الخِلْطة (أي الشغف بملاقاة الناس لسبب ولغير سبب) والتصرُّف في أمور العالم، الهزار في الكلام بصورة دائمة، تحديد الأمور بتسرُّع، نبوات كاذبة، أن يبشر بوعد بأشياء كثيرة فوق مقدرته، مع عوارض جسدية مؤلمة ملازمة، مع مصادقة شرور ومقاومة الكفرة (أو الهراطقة). ويتحرك قلبه بالخوف بلا سبب، وضياع الثقة والأمانة بالله.

(ب) أما التجارب الأبوية الوافدة إلينا من الله لنمو المحبة

والنعمة فهي تكون لتحريك النفس للنجاح، وبها نروِّض النفس ونتدرب لنعود إلى مراتبنا الأُولى من النشاط. وهي:

الكسل، ثقل الجسم، استرخاء الأعضاء، الضجر، تخبيط الذهن، أمراض الجسد، انقطاع الأمل في ساعة الضيقة، ظلمة الأفكار، نقصان المعاضدة الإنسانية، عوز الأشياء الجسدانية: من هذه التجارب يقتني الإنسان نفساً متوحدة في ذاتها (استقلال ذاتي) متضعة مائتة عن العالم، متمرسة بالأحزان معتمدة على الله.

إذن، فمن أنواع تجاربك اعرف منهج سيرتك، وافهم إن كانت العظمة قد ألَّمت بك من عدمه لأن تجارب العظمة تبدأ حينما يبدأ الإنسان أن يعتقد في ذاته أنه أحكم من غيره ولبيب وعالم] **مار إسحق**، الباب ٢١، الجزء ٣.

٣ - النعمة والصبر على المحن، وصغر النفس

يحذِّر مار إسحق من جهة ضرورة الصبر في الضيقات هكذا:

[كل الضيقات والأحزان التي ليس لك عليها صبر واحتمال، فإن عقابها يتضاعف عليك. لأن صبر الإنسان يزيل مصائبه، فصغر النفس هو هو العذاب، وأما الصبر في الشدة فهو أب العزاء. والصبر قوَّة إلهية عسير على الإنسان أن يجدها أثناء المحنة خُلْواً من النعمة الإلهية التي تكون من مواصلة الصلاة وفيض الدموع والطلبة.

ومتى أراد الله أن يُحزن إنساناً – بسبب توانيه – يسمح بأن يوقعه في يديِّ صغر النفس، فهذا الأمر يولِّد فيه ضجراً قوياً يذوق به **الاختناق النفساني**، وهذا هو **ذوق جهنم**. ومن هذا تأتي روح الحيرة التي يتولد منها تجارب عدة، مثل التقلُّب، والغضب، والافتراء، والمذمة، وتغيُّر الآراء وتقلُّب الأفكار، والتنقل من مكان لمكان. وإن سألت عن علة هذا، أجبتك إن سبب هذا كله توانيك وأنك لم تحرص على الشفاء من هذا التواني بل تماديت فيه.

أما طبُّ هذا (أي علاجه) فهو واحد، الذي به يجد في الحال عزاء في داخله، **وهو تواضع العقل!** وخلواً من تواضع العقل يستحيل أن تنهدم هذه الحواجز بل تتجبَّر عليه الشرور بزيادة.]

مار إسحق، الباب ٢١، الجزء ٣

وفي مكان آخر يربط مار إسحق بين النعمة والصبر برباط قوي جداً:

[إذا كثر الصبر في نفوسنا (من جراء احتمال الشدائد) كان ذلك دليلاً على أننا أخذنا في السر نعمة للعزاء، علماً بأن قوَّة الصبر أعلى من كل المواهب الحاصلة من فرح القلب!] **مار إسحق**، ٢٧: ٣

٤ - النمو في النعمة هو قانون الحياة الروحية، وينبغي أن يكون التقدُّم ملموساً بجهاد داخلي بلا شبع، وهذا لا يتأتى إلا بانفتاح الوعي الروحي

وفي هذا يقول القديس مقاريوس:

[إن النفوس التي تحب الحق وصارت فيها محبة لله شديدة، لا تحتمل التراخي مهما كان قليلاً. وحتى وهي مصلوبة على صليب المسيح (في وسط المحن والاضطهاد) تحس، بسبب محبتها للرب، بالتقدُّم الروحي إحساساً يملك كيانها، لأنها تكون مجروحة حقاً بواسطة هذه المحبة وفي شدة التعطُّش إلى بر الفضيلة ونور الروح الصالح.

ولكن بالرغم من امتلاكها للأسرار الإلهية واشتراكها في النعمة والغبطة السمائية، فإنها لا تعتمد (أي لا تكتفي) بهذه الخيرات ولا تحسب نفسها شيئاً يُذكر، بل كلما زادت جدارتها لمواهب الروح كلما ازداد نشاطها بلا شبع في الجري وراء الحقائق السمائية، وكلما أحست أكثر بالتقدُّم الروحي كلما صارت حقاً أكثر جوعاً للاتحاد بالله، وإذ تصير غنية بالروح فإنها تعيش كالفقراء في داخل نفسها، كما يقول الكتاب المقدس «مَنْ يأكلني يظل جائعاً ومَنْ يشربني يظل عطشاناً» (انظر يشوع بن سيراخ ٢٤: ٢١)].

القديس مقاريوس، العظة ٢٥، الآباء اليونانيون ٩٢٨

ويقول القديس مقاريوس أيضاً:

[وأما إن كان أحد عارياً عن الصلاة، بحيث يغصب نفسه إليها لأجل الحصول على صلاة النعمة فقط، ولا يسعى في طلب الوداعة والتواضع والمحبة ووصايا الرب الأخرى ولا يعتني ولا يتعب ولا يجتهد لأجل طقسها الواجب، فبحسب اختياره ورضاه تُعطَى له أحياناً صلاة النعمة، ولكنها تبقى منفردة على حدتها كحسب طلبته، إلا أنه يظل كما كان أولاً من حيث سلوكه وسيرته، فيبقى بلا وداعة لأنه لم يطلبها ولم يهيِّئ نفسه لها، وبلا تواضع لأنه لم يسأل عنه ولم يَسْعَ في اقتنائه، ولا عنده محبة لكل الناس لكونه لم يُبال أو يتنهَّد في صلاته من أجلها، وليس له إيمان ولا ثقة في الله في تكميل ما عليه من الأفعال، لأنه لم يعرف نفسه، ولذلك لم يعلم أن ذلك يعوزه ولم يتعب بشدة حين طلب من الرب نوال اتكال ثابت صحيح عليه.][٢]

القديس مقاريوس، العظة ١٩، ص ١٧٦ و١٧٧

[لأنه جدير بكل أحد أنه كما يغصب نفسه ويندفع إلى الصلاة بنفور قلب، كذلك يغتصب نفسه إلى الثقة بالله وإلى التواضع، وإلى الوداعة والصدق والسذاجة، وإلى كل الصبر والأناة بفرح كما كُتب، فهكذا يجب عليه باغتصاب العادة أن يُعدَّ نفسه كلا شيء، ويتحمل صيت مسكنته، وأنه آخر الناس كلهم، ويقتضي أنه يهتم بتجنب الكلام الفارغ، ويتأمل أمور الله كل حين ويعلنها بفمه وقلبه؛ وكذلك يسعى في هذا السبيل، أن لا يتقد بالغضب ولا يكون ذا تشويش وضجة (كما قيل: «وكل مرارة وسخط وغضب وصراخ وفِرْية، فلْيُنزع منكم مع كل الخبث»)، وأن

(٢) هذا الإنذار يوافق كثيراً (جماعة الخاريزماتيك) والمنكبين على **الصلاة فقط** في هذه الأيام (عام ١٩٧٦ - تاريخ كتابة المقال).

يشتمل على سيرة ربنا كلها، وعمل الفضيلة تماماً، وطريق عيشة صالحة مشهورة، وسيرة حسنة على العموم، وكل تواضع الوداعة، فلا يتشامخ ولا يتكبر ولا ينتفخ ولا يتكلم في حق إنسان.

فمَنْ كان مُريداً، إذن، أن يكون مقبولاً لدى المسيح ومرضياً عنه، فعليه بالانقياد إلى هذه الأشياء كلها بتمام الاغتصاب، حتى إذا رأى الرب تقدُّمه وكمال عزمه في اغتصاب نفسه هكذا على الصلاح والسذاجة والإحسان والتواضع والحب والصلاة، وكيف أنه يسوق ذاته إليها بشدة، يدخل فيه نفسه كلها؛ فإن الرب نفسه يفعل فيه هذه الأشياء كلها بالحق بنقاوة بلا تعب ولا اغتصاب، مع أنه لم يكن يقدر أن يفعلها من قبل بالاغتصاب والاندفاع بسبب الخطية الحالَّة فيه، وهكذا تصير أفعال الفضيلة هذه كلها كأنها طبيعة فيه، لأن الرب حين يأتي فيما بعد ويصير فيه وهو في الرب، يُكمِّل فيه أوامره بلا تعب مالئاً إيَّاه بثمار الروح].

القديس مقاريوس، عظة ١٩، ص ١٧٧ و١٧٨

[فكل مَنْ شاء، إذن، أن يُرضي الله بالحق وينال منه النعمة السماوية نعمة الروح، وأن ينمو ويكمل في الروح القدس، فهو جدير بأن يغصب نفسه إلى وصايا الله كلها، ويخضع لها قلبه النافر كما هو مكتوب: «لأجل هذا بإزاء كل وصاياك تقوَّمت وكل طريق ظلم أبغضت»، فإنه كما أن الإنسان يسير بالغصب والحصر لأجل الثبات في الصلاة إلى أن يتعود عليه، كذلك في جميع أحوال فعل الفضيلة، إن كان ذا عقل مطيع فإنه يغتصب ويجتهد مع نفسه، ويعوِّد نفسه العادات الحميدة. ومع مداومة الطلب والصلاة إلى الله كل حين ولو بعد أن ينال مرغوبه ويذوق الله ويصير شريكاً في الروح القدس، يجدُّ جداً صحيحاً في تربية

الموهبة المعطاة له، وفي أن يجعلها زاهية بحيث يثق بتواضعه وبالمحبة والوداعة] **القديس مقاريوس**، العظة ١٩، ص ١٧٩.

غاية الجهاد والنعمة أن يستريح الله في الإنسان(٣)، ويستريح الإنسان في الله:

[إن الله عندما يريد، يجعل نفسه راحة تفوق الوصف، وسرية، لكي تستريح النفس به أي بالراحة الإلهية. حينئذ يظهر روح الرب لراحة النفوس البارة لأجل بهجتها ونعيمها وحياته الأبدية].

القديس مقاريوس، عظة (جديدة) ١٦ ص ٨٥-٨٨

[إن قلبنا هو قصر المسيح، فلا ينبغي أن يكون مشحوناً بنجاسة من أي نوع، أو تسكنه أرواح شريرة خبيثة (المكر، الغش، الخداع، الخبث، الحسد، البغضة، النميمة ... إلخ). يجب، إذن، أن يُعاد إصلاح هذا القصر، لأن المسيح الملك سيأتي إليه مع ملائكته وقديسيه ليستريح فيه].

القديس مقاريوس، عظة ١٥: ٣٣، مجموعة (الآباء اليونانيون) ٥٩٧

[إن طعام المسيح وشرابه وملابسه وبيته وراحته هي في نفوسنا. إنه دائماً يقرع بابنا راغباً في الدخول إلينا. فلنَستقبله ونُدخله داخلنا. لأنه هو أيضاً بالنسبة لنا طعامنا وحياتنا وشرابنا وحياتنا الأبدية (أتعشى معه وهو معي).

وكل نفس لا تستقبله ولا تعطيه راحة فيها، وبتعبير أفضل لا تستريح هي فيه، فهذه النفس ليس لها نصيب في ملكوت السموات].

القديس مقاريوس، عظة ٣٠: ٩، مجموعة (الآباء اليونانيون) ٧٢٨

---

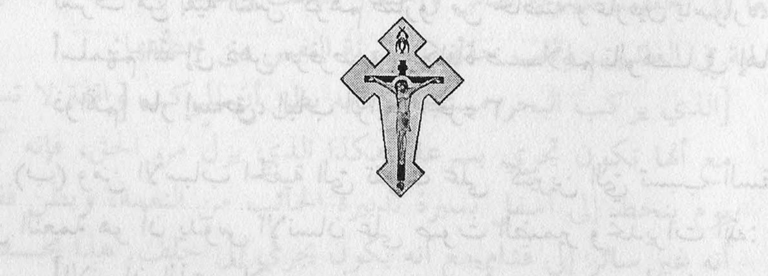
(٣) يبدو أن القديس مقاريوس يرى أن الله لم يستَرِحْ في أي يوم من الأيام الستة بل وجد راحته في اليوم السابع، لأنه وجد مكان راحته في قلب الإنسان.

[كل نفس لا تستقبله في داخلها الآن ولم تُعطه راحة من فضل ثماره وقوته، أو بالأحرى لم تَسْتَرِحْ هي فيه ولَم تحيا حياة الروح، ليس لها نصيب في ملكوت السموات مع القديسين، ولا تستطيع الصعود إلى مدينة الأبكار السمائية.

وعندما يكون لنا رجاء مثل هذا بأن الرب يدخل ويستريح في نفوسنا، أو بالأحرى تستريح نفوسنا فيه، فيجب أن تحوِّل كل ما يحدث في العالم ليعمل لمصلحتك الروحية بواسطة العين الروحانية وبفضل الاتجاه والغاية الحسنة التي تختارها دائماً. فمثلاً إذا رأيت في العالم أفراحاً وأعياداً ومسرَّات، فقُلْ لنفسك: أوَاه يا نفسي! متى تصيري أنت أيضاً فرحانة لتحتفي بالعيد الروحاني الذي للروح؟] **القديس مقاريوس**، عظة جديدة ١٦، ص ٨٥-٨٨

[إن الخليقة كلها خاضعة لسيادته، لكنه لم يُقِمْ له فيها عرشاً ولم يدخل في شركة معها، ولم يُرِدْ أن يستريح إلاَ في الإنسان الذي دخل معه في شركة وصار مكَاناً وراحة له ... أترى الآن قرابة الله للإنسان وقرابة الإنسان لله؟ لأجل هذا فإن النفس البصيرة والفَطِنَة تجوب كل الأشياء المخلوقة ولا تجد لها راحة إلا في الله، والربَ قد قرَّر من جانبه أن لا يستريح إلا في الإنسان].

القديس مقاريوس، عظة ٤٥: ٥، مجموعة (الآباء اليونانيون) ٧٨٩



٥ - السقوط من النعمة

يقول القديس مقاريوس:

[والروح ذاته يمنحه هذه ويعلّمه الصلاة الحقانية والمحبة الصحيحة والوداعة الحقيقية التي كان، قبلاً، يغصب نفسه إليها ويطلبها ويشتهيها، وكانت أفكاره كلها معلّقة بها، وأخيراً أُعطيت له.

فإذا نما هكذا وكمل في الله يُحْسَبُ أهلاً لأن يصير وارث الملكوت، لأن المتواضع لا يسقط أبداً، وإلى أين يسقط إذا كان هو أسفل الكل، وأما التشامخ فهو سقوط عظيم والتواضع هو تشامخ عظيم وكرامة وعزٌّ].

القديس مقاريوس الكبير، العظة ١٩، صفحة ١٧٩ و١٨٠

(أ) من أعظم وأخطر الأسباب التي تسبب السقوط من النعمة هي العظمة الداخلية والافتخار بالمواهب:

[وعوض الشكر الكثير والاعتراف الذي كان ينبغي أن يكون على الدوام في أفواههم مالوا إلى الافتخار وزاغوا ناحية العظمة الفكرية، لذلك لم يستأمنهم الله أن يبقوا في هذه النعمة أو يخدموه بالسيرة الطاهرة والأعمال الروحانية، لأنهم ظنوا أنهم هم المحسنون إليه وكأنهم أشرف من بقية الناس كونهم صاروا من خاصته وعارفين بأسراره، لهذا أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض، ومكافأة ضلالهم نالوها في إهانة ذواتهم] **مار إسحق**، الباب الرابع، الجزء ٣.

(ب) ومن الأسباب الخفية التي تفوت على كثيرين التي تسبب السقوط من النعمة هو أن يدوس الإنسان على صوت الضمير وتحذيرات الله:

[الإنسان الذي يُلام من ضميره ويسوّف ويدوس على نيته دون

أن يقوِّم نفسه ويستجيب لعناية الله التي تنبهه للتوبة ترتفع منه النعمة بغتة ويقع بيد العدالة لتقويمه. ولن يفلت حتى يوفي الفلس الأخير، أعني الذنوب التي اقترفها ولم يذكر العاقبة].

مار إسحق، تغيير أنواع الفكر، الجزء ٤

(ج) ومن الأسباب التي ترفع النعمة عن الإنسان تحايل الإنسان بالغش والخداع لكي يظهر أمام الناس أنه بارٌّ وبلا عيب وينفي جميع أخطائه وزلاته:

[الإنسان الذي يتحيَّل دائماً لكي يُقال عنه من كثيرين إنه بار، ويُظهر أنه ما فيه عيب ولا يُسرع لقطع أسباب الخسارة، بل قصدَه فقط أن يُخفي زلاته التي يصنعها مستخدماً الغش والمكر، هذا هو العبد الغاش الذي قد باع نفسه للمديح البشري، هذا تمقته النعمة وتفضح مكره] **مار إسحق**، تغيير أنواع الأفكار، الجزء ٤.

(د) من الأسباب التي توقف عمل النعمة في الإنسان، دون أن يدري، الاعتماد على الناس بدل الله:

[لا تتكل على الإنسان لئلا تخيب من نعمة الله].

مار إسحق، نهاية الجزء الثاني

(هـ) من الأسباب المحزنة التي ترفع النعمة من جهاد الإنسان فيعود سريعاً إلى خلف، دينونة الناس واحتقار ضعف وعجز رفقائنا، وقبول الوشاية في الغائبين، وثلب حقهم، وتبرئة النفس من خطيتها:

[الذي يركب البحر مستجداً، فإنه يظن أن المركب واقفة لا تسير مع أنها تكون تجري بسرعة. هكذا الذي يزلّ من الحق، فإنه كل يوم ينحط إلى أسفل بسيرة تدبيره الخائب من النعمة، ويظن فقط أنه غير سائر إلى قدام مع أنه يكون يجري إلى خلف. هذا يحصل

لنا عندما ندين ضعف وعجز رفقائنا ونقبل عليهم المثلبة ونُبرِّئ أنفسنا بقياس الآخرين] **مار إسحق،** الميمر السادس، الجزء الرابع.

(و) كذلك من الأمور المحزنة سقوط الجبابرة من النعمة بسبب نوم الغفلة، وإهمال مطالب العبادة والانتفاخ بما حصَّله الإنسان حسب الظاهر، والتعالي بالمعرفة والعظائم والقدرة الروحية، والتكبُّر على الضعفاء والمبتدئين والظهور أمام الناس بالقوة كأنه غلب كل الشهوات وقهر الخطية والشياطين وأنه غلب ذاته بنسكه! وفي ذلك يقدِّم مار إسحق وصفاً مضحكاً مبكياً لأسد جبار اصطادوه وألقوه للصبيان ليلعبوا به:

[عسرة جداً وردية هي السقطة من سيرة الفضيلة وتحتاج إلى توبة بمقدار العلو الذي سقط منه الإنسان! وأصعب منها وأخطر مَنْ يسقط من علو تدبير الحرية الروحية - التي يكون قد بلغها الإنسان بالنعمة - وحتى لو شُفيت سقطته فإنه بعد جهد ينجو من الخطر!!

محبوب عند الشياطين السلاَّبين الحاذقين صيد جبار واحد يسعى للكمال - معتمداً على ذراعيه - حتى ولو كسر شباكهم (فضح أعمال الشيطان باليقظة المؤقتة والكلام) أو عصا على لذة دغدغة الشهوة - التي يرسلونها في أعضائه - وهو يحاول أن يقتني كنز الحياة (بنشاطه)، هذا أَخْيَرُ عندهم من ربوات ثعالب صغيرة الذين يسقطون في فخاخهم بدون تعب ويُهلكون ذواتهم بدون عناء من جهد الصيادين.

فالصيادون المهرة (الشياطين المدرَّبون على إسقاط النشطاء في العبادة) إذا وقع في مصيدتهم سبع جبار ضارٍ، فإنهم يخفون أنفسهم

ويكمنون له من كل ناحية ويضيِّقون عليه إلى أن يعثر هو من نفسه (يسقط في شهوة الزنا أو الكرامة أو المال أو الغضب أو العداوة)، فيرتبك وتضعف قوته. وعند ذلك يثبون عليه ويقلعون أظفاره (قدرته على محاربة الخطية) ويكسرون أنيابه (سلطانه الروحي) ويأخذون منه سلاحه (النعمة)، فتنعدم قوته ويتركونه مرمياً وسط الناس ليلعب به الصبيان.

هذا هو الإنسان الناسك الشجيع النفس الذي كم مرة بمعونة الله كسر فخاخ الشياطين وقطع حبال مصائدهم وأرعب صفوف عساكرهم ومَرْمَر حياتهم بقوة النعمة، إذا نام بالغفلة وارتاح إلى الإهمال والكسل، أو تعظَّم بالافتخار وانتفخ بالظنون وتعالى بالعظائم وتكبَّر على الضعفاء، كأنه قد غلب الآلام وقهر الخطية والشياطين وأخضع ذاته بجهاده ونسكه وجاء الوقت الذي يستريح فيه ويتمجد من الآخرين، وتجاهل أن يعطي الغلبة للرب ولقوة نعمته بل نسبها في نفسه لنشاط إرادته الجيدة، حينئذ ترتخي عنه العناية وتسمح النعمة بسقوطه في حبال الصيادين المتربصين ... وهو في هذا أيضاً وبعد أن يقبل الآلام المرذولة ويشتبك بالشهوات بالكلية، لا يحس بالتخلية ولا يتيقظ قلبه بالتوبة، بل بالضد في سقوطه يفتخر بفَنْطَسَة[٤] (تخيُّل) القيام كأنه متشبِّث بالنهوض، ويوسوس له الشيطان أنه متشبِّه بكمال الآباء القديسين الذين كملوا واستأهلوا لكمال الاستعلان وعمل العجائب، لكي بالتمام يسقط من النعمة] **مار إسحق،** الميمر الخامس، الجزء الرابع.

(٤) هذه الكلمة مستعرَبة عن الكلمة اليونانية φαντασία ومعناها تخيُّل، وقد كتبها مترجمو المخطوطات اليونانية القديمة إلى العربية بنفس نطقها القديم ومقابلها بالإنجليزية fantasy.

أما القديس مقاريوس فيشرح بوضوح إمكانية السقوط من النعمة بصورة مأسوية حزينة هكذا:

[إذا كان شخص كثير الغنَى، وهو أمير مفخَّم، يود امرأة مسكينة ليس معها سوى جسمها ويصير لها مُحبًّا، ويريد أن يأتي بها إلى مسكنه لتكون له زوجة وأليفة في المنزل، ولا تزال هي بعد ذلك تُظهر لذلك الزوج جميع أصناف الإرادة الحسنة وتحبه محبة دائمة، فتلك الامرأة المسكينة الفقيرة التي لم تكن تملك شيئاً تصبح متولِّية جميع ما يحوزه زوجها.

وأما إن اتفق أنها تتجاوز حدود العفة والواجبات وتسير بما لا يناسب بيت زوجها هذا، فحينئذ تُطرَد إلى خارج مفتضحة ذليلة ساترة رأسها بيدها، كما يُلمِّح إلى ذلك موسى في الناموس بخصوص المرأة المخبَّلة التي لا تُجدي بَعْلها نفعاً، ثم إنها تمتلئ فيما بعد حزناً وكآبة مفرطة وتتفكر في نفسها كيف سقطت من هذا الغنَى العظيم وكيف أضاعت ذلك المجد الفاخر وتجرَّدت من كرَامتها كلها بجهلها.

وكذلك النفس التي يخطبها المسيح العريس السماوي لنفسه لأجل شركته السرية الإلهية (ايو ١: ٣)، فإن ذاقت ذلك الغنَى السماوي (رو ٢: ٤)، ولو مرة، فيجب عليها بكل الجهد والمَيل العقلي أن تُرضي المسيح حبيبها، وتبرهن (٢تي ٤: ٥) على خدمة الروح التي اؤتمنت عليها برهبة تامة بكل سلوك عفيف ملائم بإرضاء الله في الأشياء كلها، وعدم إحزان الروح في شيء من الأشياء بل تداوم على مراعاته وحبه عن إحساس بالواجب عليها، وترفع نفسها إلى منزل هذا العريس السماوي بسيرة حسنة وبحمد قلبي على النعمة التي وُهِبَت لها.

فمثل هذه النفس تتوشَّح حقاً بتولي خيرات مولاها كلها ويصير جسدها مسكناً مجيداً للاهوته.

وأما إن قصَّرت وصنعت شيئاً غير لائق في خدمتها دون الأشياء المُرضية له، وما حفظت إرادته بالتمام، وما فعلت مع نعمة الروح الحاضرة معها، فحينئذ تُنزع منها كرامتها كلها بالعار والفضيحة وتُنفَى من الحياة كأنها لا نفع بها وليست مناسبة لشركة الملك السماوي أبداً، وبعد ذلك يصير غمٌّ وحزن وتأسُّف عام بين القديسين كلهم وبين الأرواح العقلية على تلك النفس، وتنوح عليها الملائكة والقوات والرسل والأنبياء والشهداء.

فإنه كما قال الرب إنه يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب، كذلك يكون في السماء غمٌّ عظيم وتأسُّف على نفس واحدة تسقط من الحياة الأبدية، وكما أنه إذا مات على الأرض غنيٌّ، يخرج من العالم بالمراثي والأسف والولولة من إخوته وأقاربه وأصحابه ومعارفه، كذلك تلك النفس ينوح عليها جميع القديسين بنحائبَ ومراثي، وهذا مدلول عليه من قول الكتاب المقدس: «وَلْوِلْ يا أيها السَرْو لأن الأَرْزَ قد سقط» (شجر السَرْو إشارة إلى الأبرار والملائكة، وشجر الأَرْز إشارة إلى أعضاء الكنيسة الذين يرتدُّون).

وكما أن شعب إسرائيل لما كانوا في الظاهر يُرضون الله مع أنهم لم يُرضوه كما ينبغي، ظَلَّل عليهم عمودٌ من غمام وأضاء عليهم عمودٌ من نار ورأوا البحر قد انقسم قدَّام عيونهم وخرج لهم من الصخرة ماء صاف، ولكنهم بهواهم ومَرَامهم مالوا عن الله فسلَّمهم للحيات ولأعدائهم، فأُخذوا إلى أَسْرٍ مضني وامتُحنوا بعبودية مرَّة؛ كذلك يحدث للنفس من كل هذه الاعتبارات. وقد أظهر الروح ذلك للنبي حزقيال سرّاً وقال لمثل هذه النفس:

«وجدتك عريانة في البرية وغسَّلْتُك من ماء نجاستك، وألبستُكِ ثوباً وجعلتُ الأساور في يديك وطوقاً في عنقك وأقرطة لأذنيك، وشاع خبر اسمكِ في الأمم وأكلت سميذاً وعسلاً ودُهناً، ونسيتِ جميع أفضالي واتَّبعتِ عاشقيكِ وارتكبتِ الزنا الفاضح» (حز ١٦).

وكذلك الروح ينصح النفس التي تعرف النعمة الإلهية، وبعد أن تتطهَّر من خطاياها السابقة وتتزيَّن بزينة الروح القدس، وتصير شريكة في القوت الإلهي السماوي ثم لا تكون سيرتها مطابقة جيداً لما لها من نصيب المعرفة المخصوص، ولا تحافظ على التوقير والمحبة كما يجب للمسيح العريس السماوي، فحينئذ تُطرَح وتُطرَد من الحياة التي كانت مشتركة فيها قبلاً، فإن إبليس لا يزال له قدرة أن ينتصب ويقوم وينتهز فرصة على الذين يحصلون على هذه الغاية، ولو كانت بعيدة، والخطية تتسلَّط على الذين عرفوا الله بنعمته وقوَّته وتسعى في نقص مراتبهم.

فسبيلنا، إذن، أن نجتهد وبغاية التبصُّر نسعى في عمل خلاصنا بخوف ورعدة. ولذلك مهما كنتم أنتم الذين صرتم شركاء في روح المسيح، فلا تتكبروا في نفوسكم بأي وجه كان، سواء كنتم حقيرين أو عظماء، ولا تتكبَّروا على النصيحة، ولا تعاندوا روح النعمة لئلا تُنْفَوا من الحياة التي كنتم شركاء فيها].

القديس مقاريوس الكبير، العظة ١٥، من صفحة ١٠٨-١١١

✠✠✠

ملاحظة: المقتطفات المأخوذة للقديس مقاريوس هي مترجمة عن الفرنسية ومراجعة على العربية، ولكن العظات الجديدة هي الثماني والعشرون عظة التي نُشرت في عام ١٩٦١ بالألمانية.

تطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك – تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

• نود لو ينتبه القارئ إلى هذا التدرج البديع في نعمة الله وسخائه بين العهد القديم والعهد الجديد. فكل عطايا الله ووعوده قديماً في خلاص الشعب من العبودية وعبوره البحر وسيناء ودخوله إلى ميراثه المريح في أرض كنعان "أرض الخيرات الوفيرة" أرض تفيض لبناً وعسلاً، ثم انتصارات الشعب بيد الله في كل حروبه وضيقاته، هذه كلها كانت "هبات نعمة"، وكانت غايتها النهائية دخول الشعب في عهد أمانة ومعرفة الله.

• فغاية نعمة الله سواء في العهد القديم أو العهد الجديد هي أن يرتبط الإنسان بالله المنعِم والرحيم ليشترك أو ليكون شريكاً في نعمة الله! غاية النعمة أن يصبح الإنسان شريكاً فيها!

• لذلك ظهرت نعمة الله بأعظم وأعمق وأكمل صورة لها في تجسد ابن الله، وهنا يركّز آباء الكنيسة بصورة مكثفة على أن نعمة الله العظمى ظهرت وأعطيت لنا في شخص يسوع المسيح.

الثمن ١,٥٠ جنيه